جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم الأخروي في القرآن الكريم

الدكتور
عبدالهادي أحمد سيد عبدالعال
الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالمنوفية جامعة الأزهر

العدد الثاني والعشرون
للعام ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م
الجزء الرابع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م
الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

ملخص

التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم الأخروي في القرآن الكريم

إن التلاؤم والتناسب والانسجام لمن أهم ما تُحْزَرُ (تُوزَنُ) به العقول، ويُعرَفُ به قدرُ القائل فيما يقول، وأشهرُ المبادئ وأقدمُها في تفسير الجمال وتعليله، ومن ثَمَّ قامت هذه الدراسةُ "التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم الأخروي في القرآن الكريم" على استكناه أسرار البنية التركيبية لعمل المجازَى (المؤمنين) وما تعكسه من أثر في نوع الجزاء وطريقة التعبير عنه؛ لأن لكلّ نظمٍ دقيقٍ معنىً دقيقاً، ولكل نظمٍ أدقَّ معنىً أدقَّ، مع ربط ذلك بالسياق؛ لما له من دورٍ لا يخفى في طريقة التعبير عن كلٍّ من المجازَى والجزاء؛ إذ هو المرجعُ الرئيسُ في اختلاف التعبير في آيةٍ عنه في أخرى بعد المقصد من الكلام...، وإلا ما كان الاختلاف في أسلوب التعبير عن الجزاء مع اختلاف السياقات للآيات التي تتماثل فيها طريقةُ التعبير عن المؤمنين إن لم يكن للسياق العام دورُه في ذلك، وهذا ما يدفعه أدنى تأمل، فالناظر في ثواب المؤمنين الأخروي يلحظ تنوعاً وتفاوتاً بين مواضعه مع اتحاد المجازَى، فتجده قوياً أحياناً، وأقوى أخرى، وأكثرُ وأعظمُ قوةً غيرهما...، وهذا ما دفعني إلى دراسة هذا اللون محاولاً الوقوفَ على جانبٍ من جوانب بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، ورصد أسرار التلاؤم والتناسب بين بنية عمل المجازى والجزاء.

الدكتور

عبدالهادي أحمد سيد عبدالعال

Abstract

The compatibility between the structure of the work of the believers and their other parts in the Holy Quran

The correlation between the structure of the work of the believers and their other parts in the Holy Qur'an is based on the understanding of the mysteries of the structure. Because all systems have a precise meaning, and all systems have a more precise meaning, with a connection to context; because of its role is not hidden in the way of expression of both the metaphor and the punishment; It is the main reference in the different fatigue In any verse in another after the intention of speech ..., otherwise, what was the difference in the method of expression of punishment with different contexts of the verses that are similar to the way of expression of believers if not the public context in this, and this is what the slightest hope, the sight In the reward of the believers of the Akharoy sees diversity and disparity between its positions with the union of the metaphor, you find it strong sometimes, stronger and more, and more powerful than others ..., and this led me to study this color trying to stand on one aspect of the rhetoric of the Koran and miracles, and monitor the secrets of compatibility and proportion Between the structure of the work of the reward and the punishment.

Dr. Abdul Hadi Ahmed Sayed Abdel-Al

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدا توجبه سوابغ نعمه وصلى الله تبارك وتعالى على سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **وبعد**،،

فهذه دراسة بلاغية موضوعها "التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم الأخروي في القرآن الكريم" تناولت فيها الجزاء الأخروي للمؤمنين على تنوعه إجمالا وتفصيلا، وقوة وضعفا...، وبينت كيف تلاءم هذا الجزاء مع بنية عملهم، ومع سياق وروده، وأعني بالمؤمنين هنا من جاء التعبير عنهم بالوصف (المؤمنين، المؤمنون، المؤمنات) فقط، ولعل الله يقيض لمن جاء التعبير عنهم بالفعل(آمن، آمنوا ...) من يقوم عليه، ويكشف أسراره، ويوضح مدى التلاؤم فيه.

وتقوم هذه الدراسة على استكناه أسرار بنية عمل المجازَى (المؤمنين) وطريقة نظم التعبير عنهم؛ لما يعكسه البناء التركيبي من أثر في نوع الجزاء وطريقة التعبير عنه؛ لأن لكلّ نظم دقيق معنى دقيقا، ولكل نظم أدق معنى أدق، ومن ثَمَّ ربطها بالثواب والجزاء الوارد في كل موضع، وبالسياق العام للآيات؛ لما له من دور لا يخفى في طريقة التعبير عن كل من المجازَى والجزاء؛ إذ هو المرجع الرئيس في اختلاف التعبير في آية عنه في أخرى بعد المقصد من الكلام...، وإلا ما كان الاختلاف في أسلوب التعبير عن الجزاء مع اختلاف السياقات للآيات التي تتماثل فيها طريقة التعبير عن المؤمنين إن لم يكن للسياق العام دوره في ذلك، وهذا ما يدفعه أدنى تأمل؛

إذ الناظر في ثواب المؤمنين الأخروي يلحظ تنوعا وتفاوتا بين مواضعه مع اتحاد المجازَى، فتجده قويا أحيانا، وأخرى أقوى، وغيرهما أكثر وأعظم قوة...، وهذا ما دفعني إلى دراسة هذا اللون محاولا الوقوف على جانب من جوانب بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، حيث يأتي فيه التعبير عن المعنى الخاص بطريقة خاصة، وعن المعنى الأخص بطريقة أخص منها... وهكذا، وهذا ما نجده من خلال دراسة جزاء المؤمنين الأخروي، حيث جاء التعبير عنه بطرق مختلفة تبعا لاختلاف السياق العام وطريقة نظم التعبير عن المجازَى، والغرض الذي ذكر فيه هذا الجزاء...

وقد قسمت البحث حسب السياق، فاستقرأت آيات كل سياق، ثم حرَّرتُهُ، وبينت كيف تلاءم الجزاء في كل موضع مع بنية عمل المجازَى فيه، ومدى ملاءمة ذلك لسياقه الوارد فيه.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وتسعة سياقات وخاتمة وفهارس.

أما **المقدمة** فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع وطريقة السير فيه.

والتمهيد ذكرت فيه معنى الإيمان، ثم طريقة تعبير القرآن عنه.

السياقُ الأول: سياقُ ترقِّي مراتبِ الجزاء تبعاً لمرتبةِ العقائدِ والأعمال.

السياق الثاني: سياق العاصم من النزاع البيني داخل الصف المؤمن وإصلاح ذات البين.

السياق الثالث: سياق الدعوة والترغيب في الاتباع الدائم، مع تنوع طرقها بين الترغيب والترهيب.

السياق الرابع: سياق هداية القرآن وتنوع طرقه بين الترغيب والترهيب.

السياق الخامس: سياق الحديث عن البعث وحال الناس فيه بين الخوف والأمن وأثر العمل في ذلك.

السياق السادس: سياق التعقيب الختامي لمناسبة ما قبله.

السياق السابع: سياق الفلاح بين أسبابه ومسبباته.

السياق الثامن: سياق تكريم النبي – صلى الله عليه وسلم–.

السياق التاسع: سياق تمام الرضا عن المؤمنين.

أما **الخاتمة** فذكرت فيها أهم نتائج البحث، ثم ذيلت البحث بفهرس لأهم المصادر والمراجع التي أفدت منها فيه.

وأخيرا أرجو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، سائلا إياه سبحانه التجاوز عن الزّلّة بحسن النية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ... وصلى الله ــ تبارك وتعالى – على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

التمهيد:

معنى الإيمان:

الإيمان في اللغة: مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن، والأصل فيه الدخول في صدق الأمانة التي ائتمن الله العبد عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤدٍّ للأمانة التي ائتمنه الله عليها وهو منافق، وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه: التصديق(١) والاعتقاد بالقلب(٢) والعلم بالله وبما جاء به الرسول(٣).

وهو أخص وأرفع من الإسلام؛ لأن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والتصديق برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وهذا ما نطق به القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ الحجرات: ١٤، فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام، ونفي عنهم الإيمان.

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (أ م ن).

(٢) ينظر: التعريفات علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري ص٦٠، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، الكليات أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق عدنان درويش – محمد المصري ص٣٠٨-٣١٢ دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(٣) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د محمد رضوان الداية ص ١٥٤، دار الفكر المعاصر، دار الفكر – بيروت، دمشق الطبعة الأولى١٤١٠ (شاملة).

وعليه فالإيمان يشارك الإسلام دائما، والإسلام لا يشاركه دائما، إنما تارة يشاركه، وتارة ينفرد عنه، إذ الخاص مركب من العام وزيادة، فالعام جزء من الخاص، والخاص ليس بجزء له، فالإسلام هنا هو المشارك للإيمان، لا المنفرد عنه(١).

وهو في تعريف الرسول صلى الله عليه وسلم ردا على سؤال جبريل: "الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ(٢)"،

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية أبو هلال العسكري ص٣١٧ – ٣٢٠ (موقع يعسوب الإلكتروني)، قال ابن منظور: والإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبه يحقن الدم فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه لا يدخله في ذلك ريب فهو المؤمن وهو المسلم حقا كما قال الله عز وجل إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون أي أولئك الذين قالوا إنا مؤمنون فهم الصادقون فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق فذلك الذي يقول أسلمت لأن الإيمان لا بد من أن يكون صاحبه صديقا لأن قولك آمنت بالله أو قال قائل آمنت بكذا وكذا فمعناه صدقت فأخرج الله هؤلاء من الإيمان فقال ولما يدخل الإيمان في قلوبكم أي لم تصدقوا إنما أسلمتم تعوذا من القتل فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر والمسلم التام الإسلام مظهر للطاعة مؤمن بها والمسلم الذي أظهر الإسلام تعوذا غير مؤمن في الحقيقة إلا أن حكمه في الظاهر حكم (ينظر: اللسان (أ م ن).

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، تحقق محمد زهير بن ناصر الناصر ١/ ٥٤، باب سؤال جبريل ... حديث رقم (٥٠) دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ ، المصنف في الأحاديث والآثار أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ٦/٥٧تحقيق كمال يوسف الحوت الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ مكتبة الرشد – =

وفي رواية مسلم: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"(١).

ونقل ابن منظور عن الزجاج أن الإيمان هو: إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم واعتقاده وتصديقه بالقلب(٢)، وعرفه بعضهم بأنه: عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح(٣)، وقيل هو: إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان(٤)، ومن خلال ذلك تظهر مكانته في الدين ومنزلته في العقيدة؛ إذ هو يجمع بين

= الرياض، وفي السنن الكبرى « الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ٢٣/١٠ رقم (٢١٣٩٣) مجلس دائرة المعارف النظامية ،حيدر آباد، الهند، الطبعة: الأولى ــ ١٣٤٤هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ٢٤٥/٩ دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ٤٣٥/١ رقم (٣٦٧) الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م، مؤسسة الرسالة

(١) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر ٢٨/١، حديث (رقم ١٠٢) دار الجيل، ودار الأفاق الجديدة ــ بيروت بدون.

(٢) ينظر: لسان العرب (أ م ن)

(٣) ينظر: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا سعدي أبو جيب ص٢٧ دار الفكر. دمشق – سورية، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م (موقع يعسوب)

(٤) ينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي ص١٤٥، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة – لبنان – بيروت – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي تحقيق أ د محمد إبراهيم عبادة ص ٧٣ مكتبة الآداب – القاهرة – مصر الطبعة الأولى – ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤م.

الامتثال الظاهري بالشرائع من شهادة وصلاة وزكاة وصوم وحج، والباطني من التصديق القلبي والاعتقاد اليقيني التام الذي يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويؤدي إلى حسن العبادة وتمامها، فضلا عن الإخلاص فيها...

طريقة تعبير القرآن عن الإيمان :

مما سبق يتبين أن الإيمان في التعبير عن المجازَى فيه قوة أكثر من الإسلام، ومن ثم فإذا جاء وصف المجازَى في القرآن بالإيمان – سواء كان وصفه بأنه من (الذين آمنوا، أو المؤمنين) – فإن ذلك ينعكس على طريقة نظم التعبير عن الجزاء، ومن ثم يأتي أكثر قوة؛ ليتلاءم مع طريقة نظم التعبير عن المجازَى، فضلا عن السياق ...

والمتأمل في ورود الإيمان المُجازَى أخرويا في القرآن يلحظ أنه جاء على طريقتين:

أولهما: التعبير عنه بصيغة الفعل(الذين آمنوا – من آمن) وهي – على عظمتها وقوتها – أقل دلالة على إيمانهم؛ إذ تدل على أن إيمانهم ما زال فعلا من أفعالهم، ولمَّا يصر بعدُ صفةً فيهم؛ لأن الفعل يقتضي المزاولة وتجدد الصفة في الوقت...، قال الحرَّالي:"وأما الذين آمنوا فهم الذين لا يثبتون على حال إيمانهم، ولكنهم تارة وتارة، ولذلك هم المنادون والمنهيون والمأمورون في جميع القرآن، الذين يتكرر عليهم النداء في السورة الواحدة مرات عديدة، من نحو ما بين قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة: ١١٩ إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾ المائدة: ٥٤ إلى ما بين ذلك من نحو قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾ النساء: ١٣٧، فهؤلاء هم أهل دين غير ثابت، ينتظمون به مع من ليس له ثبات من ماضي الأديان المنتظمين مع من له أصل في الصحة من الأديان الثلاثة، في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ ...﴾ البقرة: ٦٢ المنتظمين أيضا مع المغيرين لأديانهم، والمفترين لدين لم ينزل الله به من سلطان، في نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ ﴾ الحج: ١٧[1].

ثانيهما: التعبير عنهم بالوصف (المؤمنين، أو المؤمنات، أو مؤمن) وهي أقواها؛ لما في دلالة الوصف من ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا، ولا ريب أن ما كان ثابتا مستقرا في مقام الطاعة أدل على المعنى مما كان غير مستقر، فالمؤمنون – كما ذكر الحرالي – الذين تحققوا بحقيقة الإيمان، فصار الإيمان وصفا ثابتا في قلوبهم، المؤمنون ظاهرا وباطنا، الموحدون

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل لِلْحَرَالِّي أبي الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ المراكشي (ت ٦٣٨هـ)، ص ١٢٨، مطبوع ضمن تراث الْحَرَالِّي في التفسير (١- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل ٢ – عروة المفتاح ٣ – التوشية والتوفية ٤ – نصوص من تفسيره المفقود لسورتي البقرة وآل عمران) المستخرج من: تفسير البقاعي «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور». تصدير: محمد بن شريفة، عضو أكاديمية المملكة المغربية، تقديم وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي أستاذ بكلية أصول الدين تطوان، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م.

المتبرئون من الحول والقوة، المتحققون من مُضاء أقدار الله بما شاء لا بما يشاءون، ومن ثم فإيمانهم ثابت، ولذلك كان ثوابهم أقوى[١].

وهذه الطريقة هي المعنية في هذه الدراسة، ولعل الله سبحانه يقدر للطريقة الأولى من يقوم بدراستها والكشف عن أسرارها.

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل للْحَرَالِّي، ص ١٢٨.

السياقُ الأول:

سياقُ ترقِّي مراتبِ الجزاء تبعاً لمرتبةِ العقائدِ والأعمال.

وقد جاء في خمسة مواضع:

١- ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ النساء: ١٢٤

٢- ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ١٤٥،١٤٦.

٣- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ١٦٢.

٤- ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ التوبة: ٧١،٧٢.

٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ

وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ١١١.

تحرير السياق:

سياق آية النساء (١٢٤) العام في ترقي مراتب الجزاء تبعا لمرتبة العقائد بين المؤمنين وغيرهم، ولمرتبة الأعمال بين المشركين وبعضهم والمؤمنين وبعضهم.

وبيان ذلك أنه بدأ بغير المؤمنين ممن شاقوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد ما عرفوا الهدى، واتبعوا – جحودا وعنادا منهم – طريق الكافرين، وذكر أن هؤلاء سيصليهم جهنم، وأنها بئس المصير في قوله تعالى:﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥.

ثم ترقَّى في الحديث إلى من هم أسوأ منهم حالا، وأشد عذابا، فذكر المشركين الضالين الذين اتبعوا الشيطان، وذكر أن هؤلاء مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ..... أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ النساء: ١١٦ – ١٢١.

ثم تحدث عن أهل الإيمان، فبدأ بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ النساء: ١٢٢.

ثم ثنَّى بـــ (من يعمل من الصالحات وهو مؤمن) في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ النساء: ١٢٤.

وآية النساء (١٤٦) واردة في سياق بيان علو مرتبة المؤمنين المخلصين على بقية الطوائف؛ حيث بدأ بمن يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر في قوله تعالى:ا ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ ﴾ النساء: ١٤٥

ثم أدرج من تاب منهم وأصلح وأخلص مع المؤمنين في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٤٦

ثم ثلَّثَ بالكافرين ظاهرا وباطنا في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ النساء: ١٥٠ – ١٥١.

ثم الذين آمنوا في: ا﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ النساء: ١٥٢.

أما آية النساء (١٦٢) فهي واردة في سياق تنوُّع التضاد داخل اليهود أنفسهم، وقد أتى بأعلى الأوصاف عند كل نـــوع، فـــذكر الكـــافرين مـــنهم وصفاتهم (نقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغيـــر حـــق،

وإفكهم على مريم، وقولهم إنا قتلنا المسيح،...، وظلمهم، وصدهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل [1]).

وقال عن هذا النوع: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ النساء: ١٦١.

ثم تحدث عن أضدادهم – أهل العلم والإيمان – في: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٢.

أما آية التوبة (٧٢) فهي في سياق تقابل التضاد عملا وجزاء بين المؤمنين والمنافقين (الذين جمع معهم الكفار) بدأها بـ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ التوبة: ٦٧ – ٦٨.

ثم ذكر في مقابل ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ٧١ – ٧٢.

---

(١) يراجع في ذلك الآيات (١٥٥ – ١٦١).

وآية التوبة (١١١) واردة في سياق التمييز بين المؤمنين وغيرهم من المنافقين في غزوة تبوك، وتبكيت المتثاقلين عن الجهاد، وبيان موقف المنافقين منه، وتأنيبهم على وجه مهتكٍ لأستارهم، مكشف لأسرارهم، فبدأها بالمنافقين: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ التوبة: ١٠١.

وثنَّى بالمتثاقلين: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٠٢، ثم عاد إلى المنافقين في الآيات (١٠٧- ١١٠).

وختم بالمؤمنين المجاهدين في: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ١١١.

التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم في هذا السياق

أول ما يُلحظ في هذه المواضع اختلاف البنية التركيبية للجزاء وما تحمله من معانٍ قادرة على إبراز مرتبته من القوة حسب المحددات أو العوامل المؤثرة أو المتحكمة في نوع الجزاء وقوته وعلوِّه، المتمثلة في (بنية عمل المُجَازَى في كل موضع- المراد به- السياق الذي ورد فيه).

إذ تجد أن البناء التركيبي للجزاء في موضع التوبة (٧٢) هو الأكثر قوةً؛ لما يفيض فيه، ويعجُّ به من مظاهر الفضل والإكرام...

وتتمثل مظاهر هذه القوة في:

- التعبير عنه بـ (الوعد):﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾؛ ليشعرنا من البداية بتحققه كما حققوا هم الإيمان في قلوبهم، وتأكيد حصوله، وأنه لا خُلْفَ فيه، كما أن إيمانهم خالصٌ لا شبهة فيه.
- اصطفاء صيغة الماضي (وَعَدَ)؛ إبلاغا في تحققه، إما لكونه وعدا تقدَّم فيآي القرآن الكريم، وقُصد هنا التذكير به لتحقيقه، أو لكون تلك الصفة معهودة في الالتزام الذي لا يتخلف، على طريقة صيغة العقود، مثل: بعتُ، وتصدقتُ... وهكذا(١).
- إسناد الوعد إلى لفظ العزة والجلالة، العلم الأعظم﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الصادق الوعد، الذي له الكمال كله(٢)، وهو ما يضفي على تحقق الوعد وتأكيده قوة ووكادة....
- كما تظهر هذه القوة من خلال التفصيل في الثواب؛ حيث جاء البناء التركيبي لجملة الجزاء ممتدا، متنوعا ومفصلا، ومتعددا: (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)، (مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ)، (رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)، (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٢، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان.

(٢) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٥٩.

- كما تظهر من خلال اصطفاء كلمات البناء (مادة، أو صيغة)، مثل: اصطفاء صيغة الجمع في (جَنَّاتٍ) الذي يدل على كثرتها.
- وتنكيرها الذي يشهد بفضلها وعظمتها.
- ووصفها بـ (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ليوحي باستمرارها خضراء ذات بهجة ونُضْرة(١).
- واصطفاء صيغة المضارع (تجري) الذي يدل على تجدد الجري واستمراره، وتقديم الجري على الأنهار؛ للدلالة على مزيد العناية والاهتمام به؛ إذ هو مناط العجب في أنهار الجنة التي تجري من غير سَدٍّ ولا حاجز، في أرض حصباؤها الدر والياقوت، ثم فوق ذلك لا تتفلَّت.
- ووصف الجري بأنه (من تحتها) وليس (تحتها) الذي يشهد أن أنهارها تنبع منها، قال الإسكافي: " ومن لابتداء الغاية، والأنهار مباديها أشرف، والجنات التي مبادئ الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها... [٢]) وهذا أعظم في وصف جري الأنهار، يتلاءم ويتلاقى مع تعظيم الثواب والمثاب.
- والتعبير بـ (الأنهار)؛ لتكتمل اللذة والمتعة بمائها العذب.
- وجمعها الذي يدل على أنها أنهار كثيرة، لا نهر واحد.

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٥٩.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي برواية أبي الفرج الأردستاني،١٠٢، الطبعة الثانية ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة بيروت – لبنان.

- كما تظهر من خلال زيادة ما يدل على الاستقرار والبقاء الدائم (خَالِدِينَ فِيهَا)؛ لأن النعيم لا يكمل إلا بالدوام[١].
- ومن خلال عطف (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) على (جنات)؛ للدلالة على أن لهم في الجنات قصورا ومساكن[٢]؛ لأن الجنات لا تروق إلا بالمنازل الواسعة والدور الفسيحة[٣].

واصطفاء مادة (س ك ن) التي تدل على السكون والاستقرار والراحة، ودوام الإقامة...

وجمع (المساكن) للتكثير، وتنكيرها الذي يفيد التعظيم، فهي مساكن كثيرة وعظيمة.

ثم وصفها (المساكن) بأنها (طيبة)؛ للدلالة على أنها جمعت كل صفات الحسن، وانتفى عنها كل خبيث[٤] أو سيء..

ثم في بيان مكانها داخل جنات عدن (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) فجاء بـ (في) التي تدل على الظرفية؛ لتؤكد وجود هذه المساكن الطيبة في جنات عدن، أي: جنات الإقامة الدائمة والهناء وصحة الجسم وطيب المقر والموطن والمنبت[٥].

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٥٩.
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/١٥٣.
(٣) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٥٩.
(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/١٥٣.
(٥) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٥٩، والتحرير والتنوير ١٠/١٥٣.

ثم في تأكيد خلودهم فيها بما يشهد بعلوها وشرفها بوصف العندية (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) المؤذن بالقرب من بنائه؛ ليؤكد معنى الرسوخ والاستقرار الدائم والمستمر(١).

- ومن خلال ما هو أعظم وأكبر من ذلك كله (ورِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) هذا الجزاء المعنوي الروحي الذي جعله للمؤمنين والمؤمنات، وباصطفاء صيغة المصدر (رضوان) التي تشهد بتحقق لرضا في حد ذاته على أتم الوجوه وجميع الأحوال وكل الأزمان، وهذا ما لا يحققه التعبير بالفعل (رضي) الذي جاء في سورة (البينة)؛ لأنه يرتبط بزمن لماضي، أما هنا فهو رضا عامٌ متحقق في جميع الأزمنة وكل الأحوال.

ثم زاد فيه الألف والنون (رضوان) ليضفي عليه مزيدا من المبالغة في قوة هذا الرضا عنهم، قال ابن عاشور: " وزيادة الألف والنون فيه تدل على قوته كالغفران والشكران (٢)" ، فهو رضا لا يبلغه وصف واصف(٣)، وتنكيره للتنويع والتعظيم، فهو رضوان متنوع وعظيم (٤).

ثم أسنده إلى لفظ الجلالة والعظمة (الله) الذي لا أعظم منه عندهم (ورِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)؛ ليؤكد عظمته، ويضفي عليه مزيدا من الأهمية؛ لأن رضاه سبب كل فوز، فضلا عن أنه لا يقع السرور الذي هو أعظم النعيم إلا برضا السيد(٥) .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٥٩.
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/١٥٣.
(٣) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٦٠.
(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/١٥٣.
(٥) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٦٠.

ثم وصفه بأنه (أكبر) ملقا من دون ذكرٍ للمفضَّل عليه؛ لأن رضوان الله تعالى سبب كل فوز، وأصل كل خير، ومن ثم فهو أكبر وأعظم من كل كبير وعظيم[١].

- ومن مظاهر قوة الثواب هنا أيضا التعقيب بـ (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذي يؤكد قوته، ويزيد الترغيب فيه، من خلال التعبير عنه باسم الإشارة الموضوع للبعيد (ذلك)، أي: الأمر العالي الرتبة (٢) إشارة إلى جميع ما ذكر من الجنات والمساكن وصفاتهما والرضوان الإلهي[٣].

ثم قصر الفوز العظيم عليه قصرا حقيقيا، أي: ذلك الذي ذكر هو وحده خاصة لا غيره الفوز العظيم الذي يستصغر دونه كل شيء من أمور الدنيا والآخرة[٤].

وهذه القوة التي يفيض بها البناء التركيبي للجزاء في هذا الموضع (التوبة ٧٢) تتلاقى وتتلاءم مع قوة البنية التركيبية في التعبير عن المُجازَى، والمتمثلة في:

- مجيء التعبير عن المجازَى فيها بالوصف (المؤمنين والمؤمنات) الذي يشهد بتمكن الإيمان منهم، وتحققه وثبوته فيهم، فضلا عما فيه من دلالة على اللزوم، واستغراق كل الأزمان وجميع الأحوال، بخلاف ما لو جاء التعبير بالفعل (آمنوا) أو (يؤمنوا) مثلا، الذي يدل على ارتباط الفعل بزمن معين لا بكل الأزمان، وهو ما يضعفه...

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٦٠، التحرير والتنوير ١٠/١٥٣.
(٢) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٦٠.
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/١٥٣.
(٤) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٦٠.

- التعريف بـــ (أل) الجنسية (المؤمنين والمؤمنات) التي تشهد أنهم بلغـــوا الدرجة القصوى في كمال الإيمان، وأنهم حققوا الإيمان البشري الكامـــل، بحيث لو أطلق لفظ المؤمنين لانصرف إليهم، وما وجد النـــاس غيـــرهم لينطبق عليهم..

- التفصيل في صفات المُجازَى الواردة في السياق في قوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة: ٧١ الذي عُنِيَ بذلك أشد عناية؛ حيث ذكر من صفاتهم بعد الإيمان أنهم (بعضهم أولياء بعض)، وأنهم (يأمرون بالمعروف)، و(ينهون عن المنكر)، و(يقيمون الصلاة)، و(يؤتون الزكاة)، و (يطيعون الله ورسوله).

- وهذا يلائمه ويتلاقى معه عظم الثواب الوارد في حق أولئك الموصـــوفين بتلك الصفات العظيمة المتعددة.

- كما أن التفصيل في جزاء المؤمنين وصفاتهم هنا يتلاءم ويتلاقى بالتقابل مع التفصيل الوارد – قبلُ – في سياق الحديث عن المنافقين (صفاتٍ وجزاءً)، في قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ التوبة: ٦٧ – ٦٨.

- فالوصف (وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ) يتلاقى بالتقابـــل مـــع الوصـــف (ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ)، و(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ) في جانب المؤمنين يتلاقى بالتقابل

مع (بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ) في جانب المنـــافقين، و(يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) في الحديث عـــن المـــؤمنين يتلاقـــى بالتقابـــل مـــع (يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ) في المنافقين، وزيد في جانب المؤمنين (وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ)؛ تنويها بأنها أعظم المعروف[1]، و(وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) في صفات المؤمنين يقابلها (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ) في صفات المنافقين، و(وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ) في وصف المؤمنين يقابلـــه (نَسُواْ ٱللَّهَ) فـــي المنـــافقين؛ لأن الطاعة تقتضي الذكر والمراقبة...، و(أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ) في الحديث عن المؤمنين يقابله (فَنَسِيَهُمْۚ) للمنافقين، هذا كله في جانب المُجازَى.

أما التلاؤم بالتقابل في الجزاء فيتمثل في:

اصطفاء التعبير بالوعد فيهما؛ تأكيدا وإبلاغا في التحقـــق ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ... ﴾ ٦٨، و ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ... ﴾ ٧٢.

التقابل في الموعود فيهما، ففي المنافقين: ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا... ﴾، وفي المؤمنين:﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ... ﴾ ، و(هِيَ حَسْبُهُمْۚ) في المنافقين، يقابله: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ في جزاء المؤمنين، و (وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ) في المنافقين يقابله (وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) في جزاء المؤمنين، وفي الختام التذييل بـــ (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) في مجازاة المنافقين يقابله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۗ في المؤمنين.

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٥٢/١٠.

وهكذا جاءت قوة الجزاء والتفصيل متلائمة أشد التلاؤم مع بنية عمل المُجَازَى، والمراد به، وسياقه الوارد فيه، فسبحان من أنزل هذا الكلام!!! .

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ١١١ فإن البناء التركيبي لجملة الجزاء فيها هو الأقرب = من حيث دلالته على عظم وقوة الجزاء = إلى سابقه (موضع التوبة ٧٢) ، وإن كان الموضع الأول هو الأكثر قوة والأعلى والأعظم في زيادة الفضل وقوة الثواب، إذ يشتركان في جمعهما في الجزاء بين النوعين: (الجزاء الحسي، والمعنوي) على اختلاف بينهما.

فالجزاء الحسي في موضع التوبة ٧٢: ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ﴾ والجزاء الحسي هنا: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾ التوبة:١١١.

والجزاء الروحي المعنوي هناك: (وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) ٧٢، وهنا ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ ﴾ ١١١ .

كما أنهما يشتركان أيضا في تقييم الجزاء بالتعقيب عليه بالتذييل: ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ في الموضعين..

أما عن مظاهر القوة في الجزاء وتلاؤمه مع بنية عمل المُجازَى هنا فتتمثل في:

١ – إخراج الجزاء مُخرَج الاستحقاق الواجب للمُجازَى (المؤمنين المجاهدين بأنفسهم وأموالهم) المأخوذ من التعبير بمادة الشراء (اشترى) الذي يدل على إعطاء شيء مقابل بذلٍ من الجانب الآخر(١).

ثم تأكيد هذا الاستحقاق بمؤكدات تترى، متعاقبةً، يتلو بعضها بعضا.

أولها: اصطفاء صيغة الماضي (اشترى) التي تؤكد تحققه وحصوله، وكأنه قد حدث وتحقق فعلا على أرض الواقع..

ثانيها: التأكيد بـ (إن) مبالغة في قوة تحققه وحدوثه؛ إذ كان يكفي أن يُقال: (اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة).

ثالثها: التعبير بما يدل على التملُّك والملكية (اللام) في (بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ)، فهذا الجزاء الجنة ملك لهم مقابل عملهم؛ مبالغة في الدلالة على تحقق تملكهم إياها(٢).

رابعها: الضمير في (لهم) الذي يشهد أن هذا الجزاء– هذه الجنة– لهؤلاء المجاهدين؛ زيادة في التأكيد، ومبالغة في تأكيد ملكيتهم إياها.

خامسها: تأكيد هذه المبالغة بالمفعول المطلق (وعدا) من (اشترى)؛ لأنه بمعنى (وعد)؛ إذ العوض فيه مؤجل، ثم وصف الوعد بـ (حقا) ليضفي عليه مزيدا من التحقق، إبلاغا في الوفاء به، ثم زيادة

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٠٩/١٠.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٠٩/١٠.

المتعلق (عليه)؛ مبالغة في تأكيده والدلالة على تحققه، وهو في الأصل مصدر (حقَّ) بمعنى: ثَبَتَ)، ثم استُعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شك فيه، ويطلق كثيرا على الكامل في نوعه، الذي لا سترة في تحقق ماهية نوعه فيه(١).

ثم اصطفاء الحرف (على) بما فيه من معنى الوجوب؛ مبالغة في تأكيد معنى الاستحقاق، فضلا عن تقديمه على عامله(وعدا عليه حقا)؛ اهتماما بما دلت عليه (على) من معاني الالتزام؛ إبلاغا في قوة ووكادة الوفاء والتحقق، ثم في جعل ذلك الالتزام منه سبحانه الملك الأعظم (عليه) مبالغة في تأكيد تحقق هذه المبايعة.

سادسها: تأكيد هذه لمبايعة بذكرها في جميع الكتب القديمة ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾؛ لإشهارها؛ مبالغة في قوة الالتزام بها، وتحقيق حصولها والوفاء بها..

سابعها: تأكيد تحقق هذا الوعد بالاستفهام الإنكاري ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الدال على تمام الوفاء به، من خلال اصطفاء التعبير عنه بالعهد، وهو: الوعد المؤكد بحلف أو غيره(٢)، فضلا عن إظهار اسم الجلالة (الله)؛ لاستحضار المعنى الجامع لصفات القوة والعزة والكمال والقدرة؛ مبالغة في وكادة وتحقق ا وعد به سبحانه..

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٩/٢٠.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٠/٢١٠.

وهذه القوة المفرطة في بنية الجزاء تتلاقى أولا مع العمل المجازى نفسه؛ إذ إن كون الإنسان يتخلَّى عن كل ما له في هذه الحياة من ولدٍ ووالدٍ وحليلةٍ، ثم قبيلةٍ ومسكن ومتاع وأموال، ثم يتخلَّى عن حياته بالمرة، فيخرج باذلا في سبيل الله تعالى نفسه وماله... كلُّ هذا لا يُتصوَّرُ أن يكون من عاقل لمجرد شيء مشكوك فيه؛ بل لا بد أن يكون مؤكدا بأكثر من مؤكد، بل بأقوى المؤكدات حتى يُقْدِمَ عليه الإنسان تاركا وراءه كلَّ ما عساه أن يُعَوِّقه عن هذا الخروج، وبهذا يتلاقى ويتلاءم إخراج الجزاء هنا مُخْرَجَ الاستحقاق الواجب، والاحتشاد في تقويته، وتأكيده بهاتيك المؤكدات المتعاقبة في السياق – كما سبق – مع العمل المطلوب، وهو بذل النفس والمال في سبيل الله...

كما تتلاقى هذه القوة وتتلاءم مع السياق العام للسورة التي تفضح أعمال المنافقين ونواياهم وتشكيكهم وتثبيطهم، حتى إنها سميت الفاضحة،

كما تتلاقى مع السياق الخاص وما فيه من فرح المنافقين بمقعدهم عن الغزو، وكراهيتهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ٨١، ثم تثبيطهم المؤمنين عن الجهاد وتنفيرهم منه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ ٨١، وهو ما يشهد بحب الراحة، والركون إلى الدّعة، كما ينبئ عنه قوله: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ التوبة: ٨٦، الذي يشهد بشدة تمسكهم بمتاع الدنيا من أموال وأولاد ...، يوضح ذلك بشدة قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ ٩٨.

وهذا كله يحتاج إلى فضل قوة ووكادة في بنية الجزاء؛ ليتحقق المقصد والغرض الرئيس من سوق الحديث وهو الترغيب في الجهاد، والحث عليه...

٢- من مظاهر قوة الجزاء هنا اشتماله على نوعي الجزاء: (الحسي، والروحي).

(أ)= الحسي المتمثل في (الجنة) المعرفة بـ (أل) التي أرى فيها هنا دلالتي العهد والجنس، فهي الجنة المعروفة التي يعلمها المؤمنون، ويعلمون نعيمها ومتاعها وما فيها من كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

والجنة التي بلغت الدرجة القصوى في الكمال، حتى إن غيرها بجوارها ليس جنة.

(ب)= الروحي المتمثل في البشرى بالمبايعة وتمامها في قوله: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾، وقد جاءت هنا مقوَّاةً عن طريق حروف الزيادة، حيث قال: (استبشروا) ولم يقل: (أبشروا)؛ للدلالة على قوة وكمال البشرى.

ثم في إسناد المبايعة إليهم (بيعكم، الذي بايعتم به).

وهذا أيضا يتلاقى مع العمل الذي أفضى إلى هذا الجزاء؛ إذ العمل هنا نوعان:

حسي، يتمثل في بذل المؤمن ماله في سبيل الله، وتخلِّيه عن متاع الدنيا الحسي من ولد وصاحبة ودار وغيرها مما يملكه من مقومات حسية تثبطه عن الخروج للجهاد..

وروحي، يتمثل في بذل المؤمن روحه في سبيل الله تعالى؛ نصرة لدينه وإعلاء لكلمته..

ومن ثمَّ فكما كان عطاء المؤمن روحيا وحسيا كان جزاؤه كذلك (جنة) نعيما حسيا، و(بشارة) نعيما روحيا..

كما أنه يتلاقى – بعد ذلك كله – بالتقابل مع جزاء المنافقين حسيا وروحيا في قوله: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ ٩١ (الحسي)، و (وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) الروحي المعنوي.

٣- من مظاهر قوة الجزاء هنا أيضا تقييم الجزاء من خلال تعقيبه بالتذييل: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ حيث اصطفى التعبير عن الجزاء باسم الإشارة (ذلك) الموضوع للبعيد؛ تعظيما له ودلالة على علو مكانته، وبعد منزلته..

ثم أعقبه ضمير الفصل(هو) الذي يفيد التخصيص، ويدل على أنه لا غيره الفوز العظيم(١)، من دون وجود من ينكر ذلك.

فضلا عن لتعبير عنه بالمصدر (الفوز)، وتعريفه بـ (أل) الجنسية؛ للدلالة على أنه الفوز الثابت الدائم المستقر الكامل، الذي بلغ الدرجة القصوى في تمامه وحسنه وقوته..

ثم وصفه بـ (العظيم) بعد ذلك؛ إبلاغا في كماله، وتمامه، وتصريحا بعظمته..

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٣/٣٩٠.

وكل هذا أيضا يتلاقى بالتقابل مع موقف المنافقين من الجهاد، الذي يرونه خسرانا مبينا، ويحاولون بشتى الوسائل إثناء المؤمنين عنه، وتثبيط عزائمهم فيه من خلال فرحهم بمقعدهم، ثم تخلفهم، ثم كراهيتهم الجهاد بالمال والنفس كما في قوله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ ٨١، وطلبهم القعود صراحة (ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ)، ولمز المؤمنين والسخرية منهم ومن جهدهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ...﴾، ورأوا أن ذلك هو الفوز، ومن ثَمَّ قلب الله عليهم ذلك، وبيَّن أن تملك الجنة وحده هو الفوز لا غيره، وأنه الفوز العظيم الذي لا يساويه فوز...

أما بقية مواضع هذا السياق فقد جاءت البنية التركيبية فيها أقل قوة من موضعي التوبة (٧٢، ١١١) في جانبي المجازى والجزاء.

فقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء: ١٢٤ جاءت البنية التركيبية للجزاء فيها موجزة، ومن دون تفصيل؛ إذ لم يرد فيها جري الأنهار، ولا المساكن الطيبة، ولا الرضوان، أو البشرى التي وردت في موضعي التوبة، واقتصرت على دخول الجنة، ونفي الظلم فقط: (فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)، وهي أقل قوة في الدلالة على التحقق والإشعار بالالتزام الذي لا يتخلف، المأخوذ من صيغة الوعد (وعد الله) في الموضع الأول (التوبة ٧٢)، ومن صيغة الشراء والبيع (إن الله اشترى...فاستبشروا ببيعكم) في الموضع الثاني (التوبة ١١١)، كما أنها أقل

قوة في الدلالة على التملُّك والتمكُّن من التعبير بـ (بأن لهم الجنة) الوارد في الموضعين (التوبة ٧٢، ١١١)، فضلا عن خلوِّه من الجزاء الروحي (رضوان من الله أكبر) في الأول، و(فاستبشروا) في الثاني، ومن تقييم الجزاء بالتعقيب عليه بالتذييل (ذلك هو الفوز العظيم) الوارد في الموضعين.

وهذا الإيجاز في جانب الجزاء يتلاقى مع الإيجاز في البناء التركيبي للعمل الوارد هنا؛ إذ بم يرد فيه تعديد ولا تفصيل لصفات المُجازَى كما ورد في الموضعين السابقين؛ فموضع التوبة(٧٢) أورد لهم من الصفات (بعضهم من بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله)، وفي الثاني (١١١) أورد لهم (بيعهم لله أموالهم وأنفسهم، يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون، ويقتلون)، أما هنا فلم يرد من صفاتهم إلا (وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) وليس (يعمل الصالحات) الذي يدل بمجيء (من) قبل الصالحات على أنه يعمل بعض الصالحات أو جزءا منها، ومن ثم تلاقى معه أيضا إفراد الجنة (فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ) وليس (جنات) كما ورد في الموضعين السابقين.

كما أن هذا الإيجاز يتلاقى ويتلاءم مع مقام الفصل بين المتخاصمين، فقد روى لواحدي أنها نزلت لما تحاجَّ المسلمون وأهل الكتاب، وقال كل فريق للآخر: نحن خير منكم، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا[1]، فجاء الحكم الفصل بينهما ببيان أن المجازاة ليست على حسب الأماني

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٦١/٤، أسباب النزول للواحدي ١٢١ مؤسسة الحلبي وشركاه- القاهرة، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز مكة المكرمة ١٣٨٨ه ١٩٦٨م.

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٢٣، إنما هي حسب الأعمال، فمن يعمل سوءا يجز به أيا كان معتقده أو طائفته، ومن يعمل بعض الصالحات أو شيئا منها مع صحة الاعتقاد (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) أيا ما كان لونه أو جنسه، يدخل الجنة..

كما أن الإيجاز وعدم التفصيل هنا يتلاءم ويتلاقى بالتقابل مع الإيجاز والاختصار الوارد في مجازاة المسيئين (مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ) فسمت السياق وطابعه الإيجاز والاختصار وعد التفصيل.

أما نفي الظلم (وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) في هذا السياق فإنه يتلاقى ويتلاءم وسياق الحكومة والفصل بين المتخاصمين المتحاجِّين؛ إذ كل فريق وكل طرف من الخصوم يعنيه ويهمُّهُ كثيرا، بل وفي المقام الأول أن يطمئن إلى انتفاء الظلم..، ولذلك جاء البناء التركيبي بنفي أقل مقدار من الظلم (وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)..

فضلا عن أنه يتلاقى بالتقابل مع ما ورد في الطرف المقابل (مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا)؛ إذ نفى عن هؤلاء إمكانية النصرة أو الإفلات أو النجاة من عذاب الله (مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) ومن ثَمَّ نفى عن أولئك في المقابل طمأنة لهم وترغيبا وتحبيبا أن يُهْضَمَ حقُّهم، أو أن يُنْتَقَصَ من أجرهم شيء ما، فجاء(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) كناية عن العدم...

أما قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٤٥ – ١٤٦،وقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٠ – ١٦٢

فإن البنية التركيبية للجزاء فيهما متشابهة إلى حدٍ ما؛ إذ اشتركتا أولا:

في التعبير بالفعل المضارع (يؤت) المسبوق بحرف الاستقبال (سوف) في الموضع الأول (آية ١٤٦)، والسين في الموضع الثاني (١٦٢)، وهما بما فيهما من الدلالة على تعليق الثواب على الاستقبال أقل قوة من الوعد الصريح الوارد في (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات...) التوبة (٧٢)، وأقل من تمليكهم الجنة وتمكينهم منها مقابل جهادهم بأنفسهم وأموالهم الوارد في موضع التوبة (١١١)، وأقل كذلك من الإدخال (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) النساء ١٢٢.

غير أن هذا التعليق يتلاقى ويتلاءم مع حال المُجازَى هنا في الموضعين(النساء: ١٤٦،١٦٢)..

فالمجازى في الموضع الأول (النساء١٤٦)هم الذين تابوا من النفاق، ودخلوا في معية المؤمنين، ومن ثَمّ فتعليق الثواب على الاستقبال معهم

يتلاقى مع طبيعة النفاق، ويتلاءم مع حالهم السابقة التي كانوا عليها والواردة في السياق أتم الملاءمة؛ ذلك أن نفوسهم مترددة، وأنهم بوجوه متعددة، كما وصفهم الله تعالى: ﴿...ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾ النساء:١٣٧، ﴿...فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ النساء:١٤١، ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ النساء: ١٤٣، كما أنهم مخادعون، ثُمَّ من يخادعون ؟؟؟!!! إنهم يخادعون الله عز وعلا، ويراؤون ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ النساء: ١٤٢، هذه حالهم، وتلك صفاتهم، ومن ثَمَّ ناسبها وتلاقى معها عدم سرعة الإثابة أو تأكيد تحققها، وتعليق الثواب على الاستقبال؛ ليكون في ذلك حثا لهم على الثبات على التوبة، والمداومة على الصلاح والاعتصام بالله، وإخلاص الدين له.

وليتحقق لهم الترغيب والترقب والتطلع إلى ثواب الله بما يضمن استقامتهم واستمراريتهم على الحال الجديد، حال التوبة والصلاح والإخلاص في العبادة...

ولهذا أيضا لم يُخَصص الثواب الوارد هنا بهم وحدهم؛ إذ لم يأت (سوف يؤتيهم الله أجرا عظيما) بل جاء عاما يشملهم وغيرهم من المؤمنين(فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا)، وهو ما يوحي بقلة إحسانهم، وقلة المحسنين منهم، وتذبذبهم وترددهم، وهذا ما

بدا جليا من السياق كما سبق، فضلا عن كون السياق في توبيخ المنـــافقين في المقام الأول...

أما الموضع الثاني (النساء ١٦٢) فإن المُجازَى فيه هم المؤمنون من اليهود، والمنافقون واليهود صفاتهم متقاربة، بل إن أكثر المنافقين كانوا من اليهود، ومن ثَمَّ ففي تعليق ثواب المؤمنين منهم على الاستقبال الدال علـــى عدم سرعة الإثابة حثٌ لهم على مداومة الطاعة، وملازمة العبادة.

كما أن عدم تخصيصهم وحدهم بالثواب – إذ عطف عليهم (المـــؤمنين والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) ولم يقـــل مثلا: (لكن الراسخون في العلم منهم سنؤتيهم أجرا عظيما) – يوحي بقلـــة الراسخين في العلم منهم، وهذا ما ظهر جليا من أحوالهم وصـــفاتهم التـــي ذكرها السياق، من نقضهم العهد، وكفرهم بآيـــات الله، وقـــتلهم الأنبيـــاء، وقولهم قلوبنا غلف، وقولهم في المسيح، وافترائهم على أمه، وأخذهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل[1]..

ولعل مجيء (السين) هنا مع اليهود، و(سوف) مع الذين تـــابوا مـــن المنافقين؛ لأنهم هناك من عامة الناس، بخلافهم هنا فهـــم المؤمنـــون مـــن اليهود، بل طائفة خاصة منهم وهم الراسخون في العلم خاصة، ولهذا جاءت معهم (السين) التي هي أقل في الدلالة على تعليق الثواب من سوف...

واصطفاء التعبير عن الثواب بلفظ (أجرا) في الموضعين بما فيه مـــن الدلالة على كمال استحقاق هذا الثواب، حتى أصبح كأنه أجرٌ لهم في مقابل شيءٍ مأجورٍ عليه يؤكد الاهتمام بهذا العمل الذي نتج عنه هذا الجزاء حتى

(١) يراجع الآيات (١٥٥ – ١٦١) من سورة النساء.

صار له أجرا يقابل ما بُذِل فيه من جهد؛ لأنه ما دام العمل عظيما فإن الأجر المؤدي إليه عظيم..

وفي إطلاق هذا الأجر المستمد من تنكيره وما فيه من عموم وشمول، جعله يتسع ليشمل كل معاني الثواب دون تحديد يشهد بعظمته وفخامته، التي يزيدها وصفه بأنه (عظيم) "تُحتقَر له الدنيا وكل ما فيها من زينة ونعمة[١]".. وذلك إحسان آخر على إحسان؛ لأن الأجر العظيم هو الكبير في الذات الحسن في الصفات، الباقي في الأوقات، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق، فإن كان زائدا في الطول فقط يقال له: طويل، ولو كان زائدا في العرض فقط يقال له: عريض، ولو كان زائدا في العمق فقط يقال له: عميق، فإذا وجدت الأمور الثلاثة قيل: عظيم، ولهذا يقال: جبل عظيم إذا كان عاليا ممتدا في الجهات، فإن كان مرتفعا فحسب قيل: عال، وأجر الدنيا في ذاته قليل، وفي صفاته غير خال عن جهة قبح؛ لما في مأكوله من الضرر والثقل، وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات، وغير دائم، أما أجر الآخرة فهو كثير خال عن جهات القبح دائم[٢]...

وهذا ما يلائم حال من تاب وأصلح وأخلص لله من المنافقين، وآثر ما عند الله ودخل في معية المؤمنين، وتخلَّى عن الدنيا وزخارفها ومغرياتها، ويلائم أيضا حال الراسخين في العلم من اليهود، الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وتركوا تعصبهم، وأقلعوا عن جحودهم وغرورهم...

---

(١) نظم الدرر٦/ ٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب بتصرف يسير ٢٠٦/٢٥ طبع دار الكتب العلمية طهران ط الثانية من دون .

كما أن هذا التعظيم وهذه القوة المأخوذة من تنكير (أجـــرا) ووصـــفه (عظيما) في آية ١٤٦ يتلاقى بالتقابل مع قوة وشدة عذاب من استمر على نفاقه ولم يتب في قولـــه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ١٤٥..

كما يتلاقى بالتقابل أيضا في موضع (١٦٢) مع جزاء الذين ظلموا من اليهود واستمروا في جحودهم وعنادهم وغرورهم فصدوا عـــن ســـبيل الله، وأقبلوا على الدنيا فأخذوا الربا، وأكلوا أموال النـــاس بالباطـــل...، فكـــان عقابهم قويا؛ حيث جاء بتنكير (عذابا) ووصفه بـــ (أليما) فـــي ﴿ ... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ١٦١...

السياق الثاني:

سياق العاصم من النزاع البيني داخل الصف المؤمن وإصلاح ذات البين.

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الأنفال: ١ – ٤.

تحرير السياق

الآيات واردة في سياق العاصم من النزاع البيني داخل الصف المؤمن بعد الانتصار في غزوة بدر، حيث اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا في الغنائم ورأى كل فريق أنهم أحق بها من غيرهم(١)، فأخذهم الله تعالى بالتربية

(١) وذلك أنهم كانوا يوم بدر على ثلاث على فرق: فرقة مع النبي –صلى الله عليه وسلم– في عريشه تحرسه وتؤنسه، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم، وثالثة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا، فلما انتهت المعركة واجتمع الناس اختلفوا فيما بينهم، ورأت كل فرقة أنها أحق بالغنائم من غيرها، فنزلت الآيات حاثة على تقوى الله (فاتقوا الله) بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتسليم الأمر إليه(وأصلحوا ذات بينكم) بترك النزاع والشقاق، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان والمساواة والموادّة وسلامة الصدور؛ لأن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال.

وذكر الواحدي عن عبادة بن الصامت أنه سئل عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت جين اختلفنا في النفل يوم بدر، فانتزعه الله من بين أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فرده على رسوله فقسمه بيننا... ينظر في ذلك تفسير ابن كثير ٣٤٦/٢ تحقيق محمود حسن، الطبعة الجديدة دار الفكر١٤١٤هـ ١٩٩٤م، تفسير أبي السعود ٣/٤ دار إحياء التراث العربي بيروت من دون تاريخ، المحرر الوجيز لابن عطية٥٦٨/٢ تحقيق عبدالسلام =

الربانية قولا وعملا، ونزع أمر الأنفال كله من أيديهم، فلم يعد الأمر حقا لهم يتنازعون عليه، ورده إلى رسوله– صلى الله عليه وسلم – إلى أن أنزل حكمه في قسمة الغنائم؛ ليتحرر العبد من التعبُّد للأسباب والتعلق بها، ومن ثم يصبح الأمر فضلا وتكرما من الله عليهم، يقسمه رسوله بينهم كما علَّمه ربه سبحانه (قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ).

ومن ثم توجه إلى هذه القلوب التي تنازعت على الغنائم بالهتاف الموجَّه إلى الصورة العملية الواقعية المُثلى للإيمان، التي يتجلَّى فيها ليثبت وجوده ويترجم عن حقيقته، من خلال الاستسلام التام لحكم الله وقسمة رسوله، وإصلاح القلوب والمشاعر، وتصفية الصدور ورضا النفوس، ومن ثم استدعى ذلك بيان صفات هؤلاء المؤمنين وتعديد مناقبهم والثناء عليهم في (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) الأنفال: ٢.

أما عن التلاؤم بين بنية العمل والجزاء في هذا السياق فإن المتأمل يلحظ القوة في البناء التركيبي للجزاء، وتتمثل مظاهر هذه القوة في:

١- <u>تنوع الجزاء والتفصيل فيه؛ حيث جاء الجزاء فيها متنوعا، لهم:</u>

= عبدالشافي محمد الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، روح المعاني للآلوسي ١٦٢/٩، دار إحياء التراث العربي بيروت، البحر المديد لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الفاسي ٣،٢/٣ الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري ٢٨٤/٢، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، التحرير والتنوير ٨/٩.

أ) درجات عند ربهم. ب) مغفرة. ج) رزق كريم.

وهذا التنوع وذلك لتفصيل يتلاقى ويتلاءم أقوى ملاءمة مع سياقه من عدة أوجه، أولها: أنه يتلاقى مع ما أمرهم به من التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله في قوله:(فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ) .

فالمجازاة بـ (لهم درجات عند ربهم) يناسبها ويتلاءم معها أمرهم بتقواه التي لا يقابلها ولا يتكافأ معها إلا رفع درجاتهم عند ربهم، وإكرامهم والإحسان إليهم، فضلا عن أن بينهما تلاؤم من جهة العموم في كليهما، فتقوى الله سبحانه عامة تشمل الالتزام بجميع شرائعه وتكليفاته، كما تشمل اجتناب جميع نواهيه وترك كل محظوراته، ومثلها كذلك درجات المتقين المؤمنين عند ربهم، فإنها تشمل كل أنواع النعيم حسيا ومعنويا..

والمجازاة بالمغفرة تتلاقى وتتلاءم مع الأمر بإصلاح ذات البين بعد الاختلاف والتنازع الذي حدث فعلا، والشقاق الطارئ بينهم بسبب الأنفال، ورؤية كل فريق أنه الأولى والأحق من غيره، وهو ما ينبئ عن تقصيرهم وسوء تصرفهم، ومن ثم استدعى ذلك وتطلّب المغفرة منه سبحانه..

أما المجازاة بـ (الرزق الكريم) فإنها تتلاقى وتتلاءم مع الأمر بطاعة الله ورسوله بعد نزع أمر الأنفال التي هي من كسب سيوفهم وأحب الأموال إليهم من أيديهم؛ ليخلِّصهم من التعبد للأسباب والتعلق بها إلى التعلق برب الأرباب ومسبب الأسباب، والتوكل عليه، والاستسلام التام لحكمته، وتفويض الأمر إليه.. أي : أطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين يرزقكم رزقا كريما

لا ضيق فيه ولا كدر بوجه من الوجوه، منازعة أو غيرها، ويغنيكم عن الأنفال، ويملأ أيديكم من الأموال...

ثانيها: أنه يتلاقى ويتلاءم مع التنوع في تعديد وتفصيل صفاتهم في قوله: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ) الأنفال ٢،٣.

فمجازاتهم بأن (لهم درجات عند ربهم) يتلاقى ويتلاءم مع وصفهم بالمؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، أي: الذين إذا نطق ناطق باسم من أسمائه أو شأن من شئونه من أمر أو نهي أو نحو ذلك من دلائل ذاته أو ثوابه أو عقابه أو رحمته أو عظمته... وجلت قلوبهم لاستحضارها عظمته سبحانه وجلا يبعث المؤمن على الاستكثار من الخير، وتوقِّي المعصية والشر، والوقوف عند أمره سبحانه ونهيه، ومن ثَمَّ ناسبهم وتلاقى مع عملهم مجازاتهم بـ (لهم درجات عند ربهم) ..

وكما أن وجل قلوبهم عام في جميع الأحوال فكذلك الدرجات التي ملَّكها الله تعالى لهم، كثيرة وعظيمة، وهذا مأخوذ من جمعها وتنكيرها(درجات).

وهي عالية أيضا، وهو ما يدل عليه القيد (عند ربهم) ...

ومجازاتهم بـ (المغفرة) يتلاقى مع وصفهم بأنهم (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا)، فتلاوة آيات القرآن بشكل عام تزيد المرء يقينا بأنها من عند الله، فيزداد استدلالا على ما في نفسه، فيقوى إيمانه، ويحصل له

الإقبال عليها وعلى العمل بما تضمنته من أمر ونهي، حتى يحصِّل كمال التقوى..

أما حظ هذا السياق المتعلق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة فهو أن سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمانهم قوة بنبذ الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أحب الأموال إلى نفوسهم، وهو المال المكتسب من سيوفهم، وهذا ما يستدعي المغفرة، وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر حكم الأنفال وتعقيبه بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة، ثم تعليل ذلك بأن شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله[١]..

أما مجازاتهم بـ (الرزق الكريم) فإنه يتلاقى مع صفاتهم الثلاثة الأخيرة (وعلى ربهم يتوكلون)، و(الذين يقيمون الصلاة)، و(مما رزقناهم ينفقون).

فالمراد بالتوكل على الله هنا: الاعتماد عليه في الأحوال والمساعي؛ ليُقَدِّرَ للمتوكل عليه تيسير أمره، ويعوضه عن الكسب المنهي عنه بأحسن منه، ومن ثم فلما أُمروا بالتخلي عن الأنفال، والرضا بقسمة الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيها ناسب أن يُعَوِّضَ مَن حُرِمَ من نفل قتيله وسلَّم أمره لله، ورضي بقسمة رسوله أن يعوضه الله أحسن منه رزقا[٢] كثيرا عظيما، يؤخذ ذلك من تنكير (رزق)، طيبا، لا كدر فيه ولا ضيق، وهذا ما دل عليه وصفه بـ (كريم) [٣]..

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٨/٩.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٩/٩.

(٣) ينظر : نظم الدرر ١٨٥/٣.

كما تتلاقى المجازاة بـ (الرزق الكريم) مع وصفهم (الذين يقيمون الصلاة) باصطفاء مادة الإقامة التي تختلف عن الأداء من حيث تمامها والتهيؤ والاستعداد لها، وتوفية جميع حقوقها...، وكذلك اصطفاء صيغة المضارع الدالة على تكرار ذلك وتجدده، ما يشهد بأنهم فضلوها على غيرها، وتركوا من أجلها كل ما سواها من تجارة وأموال ومصالح، فناسب ذلك أن عوَّضهم الله بـ (رزق كريم) كثير عظيم...

أما التلاؤم بين مجازاتهم بـ (ورزق كريم) وإنفاقهم المأخوذ من وصفهم بـ (ومما رزقناهم ينفقون) فجلي وواضح؛ إذ الجزاء من جنس العمل، أنفقوا على عباد الله، فأنفق الله عليهم ورزقهم رزقا كريما كثيرا عظيما...

ثالثها: أنه يتلاقى ويتلاءم مع أعمالهم في هذا السياق وما لابسها من مواقف ومشاعر؛ حيث قابل الإقدام والحرص على الشهادة منهم ببذل النفس وحسن البلاء بـ (لهم درجات عند ربهم).

وقابل ما وقع منهم في ذات البين من تنازع وتشاجر وسوء أخلاق بـ (المغفرة).

وقابل ما وقع من حب الأموال والنزاع على الأنفال بـ (ورزق كريم).

رابعها: ما ذكره الإمام البقاعي – رحمه الله – من أنه لما تقدَّم وصفهم بثلاثة أنواع من الصفات:

أ) صفات قلبية، هي الوجل وزيادة الإيمان والتوكل في قولـــه: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الأنفال قابلها في الجزاء بالدرجات (لهم درجات عند ربهم).

ب) صفات بدنية، وهي إقامة الصلاة في (ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ) قابلهـــا في الجزاء بالغفران (ومغفرة).

ت) صفات مالية، وهي الإنفاق فـــي (وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ) قابلهـــا فـــي الجزاء بالرزق الكريم (ورزق كريم).(١)

٢- <u>المظهر الثاني من مظاهر القوة في البناء التركيبي للجـــزاء اصـــطفاء مكوناته.</u>

<u>وأول ما يلحظ من هذا اللون:</u>

افتتاح جملة الجزاء باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) الذي يـــدل على أنهم أحرياء وحقيقون بهذا الجزاء؛ لما سبق أن وصفهم به من صفات انمازوا بها عن غيرهم(٢)، فضلا عما ينبئ عنه من علو هممهـــم، وعظـــم شأنهم(٣)..

التعبير بلام الاستحقاق (لهم درجات) لتأكيد ما دل عليه اسم الإشـــارة من أحقيتهم هذا الجزاء، بناء على ما دلت عليه بنية عملهم...

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣/ ١٨٥

(٢) ينظر : التحرير والتنور ٩/٢٠.

(٣) ينظر : نظم الدرر ٣/١٨٤.

(درجات) بتنكيرها وجمعها وتنوينها المنبئ بالكثرة والعظمة والتنوع؛ فهي درجات عظيمة، ومراتب متفاوتة[١]، وهو ما يتلاقى مع تنوع وعظمة وتفاوت أعمالهم (قلبية، وبدنية، ومالية)..

القيد (عند ربهم) المنبئ عن الرفعة والتكريم، فهذه العندية ليست عند رئيس أو وزير أو مدير، إنما هي عند ملك الملوك سبحانه..

فضلا عما فيها من الدلالة على القرب الشديد المنبئ عنه إضافة لفظ (رب) وهو ما يتلاقى مع قربهم منه في كل أحوالهم من خلال توكلهم عليه، ووجل قلوبهم منه، وزيادة إيمانهم به عند تلاوة آياته، وتطبيق شرعه من صلاة وإنفاق وغيرهما...

اصطفاء الرابط بين ألوان الجزاء (الدرجات والمغفرة والرزق الكريم)؛ حيث اختيرت الواو الدالة على مطلق الجمع بين هذه الأنواع، ما ينبئ أن جزاءهم مجموع هذه الثلاثة تلاقي مع تنوع أعمالهم وتعدد صفات الإحسان منهم...

تنكير (مغفرة) المنبئ بعظمتها وشمولها جميع الذنوب، ومحوها كل الهنات التي عسى أن يكونوا وقعوا فيها، وأخصها تنازعهم واختلافهم في الأنفال، وهذا ما يتلاقى مع أمرهم بإصلاح ذات البين والكف عن التنازع وحب الاستئثار بالشيء..

التعبير بـ (رزق) وتنكيره، ووصفه بـ (كريم) المنبئ عن كثرته وعظمته وخلوصه من المنازعة والكدر، تلاقيا بالتقابل مع ما نزعه الله منهم من الأنفال، الذي أنبأ عنه قوله: (قل الأنفال لله والرسول)...

---

(١) ينظر : التحرير والتنور ٢٢/٩.

السياق الثالث

سياق الدعوة والترغيب في الاتباع الدائم، مع تنوع طرقها بين الترغيب والترهيب.

وجاء في موضعين:

١- قوله تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٧

٢- قوله:﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ غافر: ٤٠

تحرير السياق:

المتأمل في سياق آية النحل يلحظ بوضوح وجلاء الدعوة إلى ديمومة الاتباع واستمراريته التي يكشف عنها ويصدع بها بقوة مثل قوله – ناهيا ومحذرا من نقض الأيمان بعد توكيدها: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ النحل: ٩١، وقوله داعيا إلى الديمومة على الخير ناهيا عن النكوص على الأعقاب: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ...﴾ ٩٢، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ ٩٤

أما التنوع في طرق الدعوة بين الترغيب والترهيب فهو جلي قوي أيضا، فالترغيب في مثل قوله: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٩٠،

وقوله: ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ٩٥، وقوله: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ٩٦، وقوله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ٩٧.

والترهيب في مثل قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ ٩١، وقوله: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ ٩٢، وقوله: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾٩٣، وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ ٩٤.

أما آية غافر فهي في دعوة مؤمن آل فرعون قومه إلى اتباع سبيل الرشاد ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ **غافر: ٣٨، وتحذيرهم من الدنيا ومتاعها الزائل:** ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ **غافر: ٣٩، والترهيب من الكفر والسيئات:** ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ...﴾٤٠، ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ **غافر: ٤١ – ٤٢، والترغيب في الإيمان والاتباع الدائم ببيان حسن عاقبته** ﴿...وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ **غافر: ٣٩، وقوله:** ﴿ ... وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ غافر: ٤٠، وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ غافر: ٥١..

التلاؤم بين بنية العمل والجزاء:

أول ما يلحظ في البنية التركيبية لجملة الجزاء في موضع النحل اقتران الجزاء الأخروي فيها بجزاء دنيوي، جمعا بين الحسنيين؛ حيث جاءت جملة الجزاء الأخروي (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) معطوفة على جملة (فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً) أي: عيشة هنية هناءً حقيقيا إن كان موسرا، وبالرضا والقناعة إن كان معسرا(١).

كما يلحظ فيه أيضا ربط الجزاء بالعمل (بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) فضلا عن الإيجاز والاختصار؛ حيث جاء موجزا لا تنوع ولا تفصيل فيه (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ).

وهذا هو السمت العام للسورة والطابع الخاص الذي طُبعت عليه والتَزَمَتْه في معالجة موضوعاتها من أولها إلى آخرها.

أما اقتران الجزاء الدنيوي بالأخروي فيها والجمع بينهما فقد حاء في السورة في جميع المواضع التي ذكرت فيها المجازاة، سواء بالنعيم أو العذاب.

ففي النعيم قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ النحل: ٣٠، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ

(١) ينظر : نظم الدرر ٣٠٩/٤.

مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٤١، وفي الحديث عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ١٢٢.

وفي العذاب أيضا التزمت السورة هذا السمت وسارت علي هذا الطابع في مثل قوله تعالى في الحديث عن الأمم السابقة: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٦٣، وقوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٠٦، وقوله: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١١٧.

ومن ثم جاء هذا الموضع متلائما ومتلاقيا مع سمت السورة وطابعها، واقتران الجزاء الأخروي فيها بالدنيوي؛ طمأنة لحديثي العهد بهذا الدين – فهي من السور المكية التي نزلت في فترة مبكرة – من المستضعفين، وبشرى لهم بأن الله سيكشف عنهم ما هم فيه من معاناة في الدنيا، إضافة إلى ما ادخره لهم من نعيم الآخرة..

أما ربط الأجر بالعمل فيتمثل في أن الأجر والمجازاة ستكون بأحسن ما كانوا يعملون.

وهو ما التَزَمَتْه السورة مع الكافرين المفسدين في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ النحل: ٨٨، ومع الصابرين في قوله: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ **النحل:**

٩٦، ولهذا أيضا جاء التعبير في العمل على صورة الشرط للدلالة على توقف المجازاة عليه، وارتباطها به (من عمل صالحا ... فلنجزينهم...)...

أما الإيجاز فهو كذلك أيضا؛ إذ لم يرد فيها أي تنوع أو تفصيل في الجزاء(نعيما أو عذابا) بل جاء في كليهما مختصرا موجزا، كما في قوله في مجازاة المعذبين: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ النحل: ٢٥، وقوله: ﴿ ...إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ٢٧، وقوله: ﴿ ...وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٠٦، وقوله: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾١١٧

وقوله في مجازاة المنعمين: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ٣٠ وقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٤١، وقوله في الحديث عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ١٢٢، حتى لما ورد ذكر الجنات أوجز وأجمل ما يكون لهم فيها وذلك في قوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ٣١.

كما يلحظ في البنية التركيبية للجزاء هنا أيضا القوة وشدة التأكيد المستقاة من تتابع المؤكدات، حيث جاءت الجملة على صورة الشرط والجواب (من عمل صالحا .... فلنحيينه.. ولنجزينهم..) للدلالة على سرعة وصول هذا الجزاء إليهم؛ تحقيقا وتقريرا لوصوله وحصوله، ولهذا جاءت الفاء المعقِّبة في الجواب؛ إبلاغا في تحققه وسرعة إيصاله إليهم.

التأكيد باللام ونون التوكيد (وما يعنينا هنا الجزاء الأخروي "لنجزينهم").

ومن مظاهر القوة في التعبير أيضا اصطفاء التعبير بلفظ (أجر) وما يشهد به من أنه أجر لهم مقابل عملهم وأنهم أحقاء به...، وهذا ما يؤكده ويرشحه إضافته إليهم، فهو أجرهم..

ثم تنكيره وما فيه من إطلاق وعموم ليشمل كل معاني الفضل والخير، ويدخل تحته كل نعيم من دون تحديد..

والقيد (بأحسن ما كانوا يعملون) الذي يدل على أن هذه المجازاة وهذا الأجر بأحسن الأعمال وأفضلها...

ومن ثم فالجزاء هنا وإن كان موجزا، لا تنوع فيه ولا تفصيل فإنه قوي وعظيم يتلاقى ويتلاءم مع المؤمن الذي يعمل صالحا من حيث وكادته وقوته وعمومه جميع ألوان النعيم وأفضلها من تحديد (جنة أو مساكن أو غيرها) تلاقيا مع كونه بأحسن الأعمال من دون تحديد عمل معين..

وبهذا تلاءم الجزاء مع بنية عمل المؤمن الذي أتى بالصالحات، ومع المراد به مخلصا لله (وهو مؤمن) ومع سياقه وسمت سورته وطابعها التي اعتمدت الإيجاز في إيراد ألوان المجازاة فيها...

أما البنية التركيبية للجزاء في موضع غافر فقد حُدِّد فيها (الجنة) و(رزقها من دون محاسبة) (فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ) .

وتتمثل مظاهر القوة هنا في مجيئه أيضا على صورة الشرط والجزاء الذي يشهد بتلازم الجزاء وترتبه على عمل المؤمن صالحا، ويشعر بتحققه كالتحقق والترتب والتلازم الكائن بين الشرط والجزاء، وعلى قربه وسرعة حصوله ووصوله المأخوذ من اقتران الجواب بالفاء المُعَقِّبة(فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ).

وتظهر أيضا في التعبير عنهم باسم الإشارة (أولئك) الموضوع للبعيد؛ إشارة إلى علو مكانتهم وأحقيتهم وجدارتهم بما يُذكر بعدُ من جزاء..

وفي التعبير بلفظ الجنة وتعريفها بلام الجنس الذي يشهد بكمالها وتمام نعيمها، حتى كأن غيرها بجوارها لا يليق أن يطلق عليه جنة..

أما إفرادها هنا فيتلاقى – من وجهة نظري – مع الإفراد في (من عمل) وفي (صالحا)؛ إذ لم يأت (الصالحات)، كما يتلاقى مع إفراد(مؤمن)..

كما تظهر في ذكر الرزق بعد إدخالهم الجنة(يرزقون فيها بغير حساب)، واصطفاء المضارع المبني للمجهول الدال على تجدد الرزق وتنوعه واستمراره من غير احتياج أصلا إلى أسباب[1]؛ تركيزا على الرزق وكثرته وتجدده في حد ذاته من دون النظر إلى أي شيء آخر...

والمتعلق (فيها) وتقديمه للدلالة على تحقق دخولهم فيها وظرفيتها لهم اهتماما بذلك؛ إذ هو (الدخول) أصيل ورئيس يترتب عليه كل ما بعده من ألوان النعيم والرزق المتعددة..

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٥١٨/٦.

ثم التذييل (بغير حساب) الذي يضفي على الرزق مزيدا من الفضل والامتنان لا حدَّ له، فهو رزقهم في الجنة، ولكثرته وخروجه عن الحصر بغير حساب، كناية عن سعة الرزق وكثرته ووفرته[1]...

وذكر الجنة وتحديدها هنا يتلاقى مع سياق دعوة مؤمن آل فرعون وما اشتهر عن فرعون من الحديث عن جناته والأنهار التي تجري من تحته في قوله في المفاضلة بينه وبين موسى أمام الملأ: (وهذه الأنهار تجري من تحتي)...

كما يتلاقى مع طلبه من وزيره بناء صرح يقارب السماء في قوله: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ... ﴾ ٣٦، ٣٧.

كما أن ذكر الرزق(يرزقون فيها بغير حساب) يتلاقى مع ذكر متاع الدنيا الذي يشمل الأرزاق وغيرها في قوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ ٣٩، وكأنه يقول لهم: إن ما عند الله تعالى من جنة بلغت من الكمال أتمه، ومن النعيم أحسنه، ومن ألوان المتاع أفضلها، وأن ما عند فرعون بالقياس إلى ذلك لا يساوي شيئا...

ومن ثم لما ذكر متاع الحياة الدنيا، وبين أنها متاع، مجرد متاع زائل منقطع يُطلَب، ويُسْعَى إليه، ويحتاج بذل مجهود وكدح في الحصول عليه، بيَّ في المقابل أن المؤمن في الجنة يُرزَقُ بدون طلب ولا مجهود وباستمرار وبغير حساب...

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٠٢/٢٤.

السياق الرابع

سياق هداية القرآن وتنوع طرقه بين الترغيب والترهيب.

وقد جاء في موضعين:

الأول: قوله تعالى:﴿إِن هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الإسراء:٩.

الثاني قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ الكهف: ١ – ٤.

تحرير السياق:

آيات الإسراء واردة لتأكيد هداية القرآن الكريم إلى الملة الأقوم والطريقة الأقوم، وأنه الذي يضمن سلامة أمة القرآن من الحيرة؛ لأنه جاء بأسلوب إرشادي قويم لم يترك مسلكا في الشرائع والطباع والأخلاق إلا سلكه، بحيث لا يعدم من تدبره الهداية، وهذا ما لم تصل إليه الكتب التي سبقته؛ تنفيسا عن المؤمنين بعد ذكر ما حلّ ببني إسرائيل من البلاء الذي يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب بني إسرائيل – الذين قال عن كتابهم: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ الإسراء:٢، غير أنه حكم عليهم بأنهم سيُختبرون ويبتلون: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا...﴾ الإسراء:٤، فجاءت الآيات تبشرهم وتعلمهم أن في القرآن ما

يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، وأنه كتاب الهداية للتي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل وغيرهم(١).

وأخص صفات الهداية للتي هي أقوم تنوع طرق الدعوة والهداية بين الترغيب والترهيب؛ لأن النفوس كلها ليست على درجة واحدة أو طبيعة واحدة، إنما هي متفاوتة ومتباينة: بعضها يغريه الفضل والإحسان (الترغيب)، وبعضها لا يجدي معها إلا الوعيد والتهديد (الترهيب)؛ ولهذا جمع القرآن بينهما في تكامل بديع معجب؛ لتكون هدايته عامة جامعة شاملة كل أنواع النفس، مجدية مع جميع الطباع على اختلافها وتنوعها...

وهذا ما أكده – أيضا – سياق الكهف الذي يوضح بـ (قيما) قيامه على هَدْي هذه الأمة وصلاحها؛ لكونه زاجرا عن الشريك، فوزانه وزان وصفه بأنه (هدى للمتقين) البقرة:٢، والجمع بين (ولم يجعل له عوجا)، و(قيما) كالجمع بين (لا ريب فيه)، و(هدى للمتقين)...

التلاؤم بين بنية العمل والجزاء

المتأمل يلحظ اتحاد بنية عمل المُجازَى في الموضعين؛ إذ هو فيهما (المؤمنون) الموصوفون بأنهم (الذين يعملون الصالحات) وهي – كما هو معلوم– بنية تركيبية قوية تبرز قوتها من التعبير بـ (المؤمنين) الوصف الذي يشهد بتمكن الإيمان ورسوخه حتى أصبح فيهم صفة ثابتة ويقينا لا يتزحزح.

ثم تعريفه بـ (أل) الجنسية الدالة على بلوغهم الكمال في الوصف (الإيمان).

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٤/٣٣ ، ٣٤.

كما تبرز تلك القوة في عملهم من خلال اصطفاء المضارع (يعملون) الذي يشهد بتجدد عملهم الصالحات، ومداومتهم عليها، وعدم انقطاعهم عنها.

وكذلك من صيغة الجمع (الصالحات) الذي يشهد بكثرتها وتنوعها، فهي أعمال صالحات كثيرة ومتنوعة، ثم تعريفها الذي ينبئ عن تمامها وكمالها.. (وهذا في الموضعين).

وهذه القوة في بنية العمل لاءمها وتلاقى معها قوة الجزاء، تلك القوة التي تظهر في موضع الإسراء من خلال:

اصطفاء صيغة المضارع (يبشر) الذي يدل على تجدد البشرى واستمرارها وتكررها؛ تلاقيا مع ما دل عليه المضارع في بنية العمل (يعملون الصالحات)، وهذا ما لا يحققه التعبير بالماضي ولا الأمر..

التأكيد بـ (أن) للدلالة على تحقق هذه البشرى، ووكادة وصول هذا الثواب، وبيان أن هذه المجازاة ثابتة كائنة لا محالة، وأنها لا يعتري وقوعها شك، ولا يطرأ على تحققها ريب.

كما تبرُزُ من خلال التعبير بـ (اللام) الدالة على الملك في (لهم)، فضلا عن تقديم المتعلق (لهم) اهتماما بشأنهم وبشأن ما لهم.

ثم من خلال التعبير عن ثوابهم بـ (أجرا) الذي يدل على أنه مقابل عمل قاموا به اعترافا بصنيعهم ومكافأة عليه، ثم تنكيره الذي ينبئ عن كثرته وعمومه ليشمل كل صنوف النعيم، وتذهب النفس في تصوره كل مذهب، ثم تأكيد ذلك بوصفه بأنه (كبيرا) الذي يؤكد كثرته وشموله، ويدل على عظمته وفخامته.

غير أن هذا الجزاء على قوته وعظمته التي تتلاقى وتتلاءم مع بنية عمل المجازى هنا قد خلا من التفصيل والتنوع، ومن تعديد ألوان النعيم؛ تلاقيا مع حال المنذرين (اليهود) حيث جاء بعد الحديث عن بني إسرائيل وفسادهم في الأرض وعلوهم وبَعْث من يصدهم من عباد الله عن فسادهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ... ﴾ الإسراء:٤،٥، وهم أهل كتاب يعلمون ذلك جيدا، فضلا عن نفوسهم المتمردة الطامحة التي يناسبها في الترغيب العموم والشمول دون تحديد ألوان بعينها حتى يضمن عودتهم عن الفساد ورجوعهم عن العناد واستمرارهم على ذلك...

أما موضع الكهف فقد وصف فيها (أجرا) بـ (حسنا) بدل (كبيرا)، وزيد فيه تأبيد المكث (ماكثين فيه أبدا).

وهذه الزيادة هنا في الكهف تتلاقى وتتلاءم مع حال المنذرين فيها (المشركين) الذين لا يعلمون شيئا عن اليوم الآخر وما أعده الله للمؤمنين فيه؛ ولذلك تأثر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعدم إيمانهم، وحزن بشدة على عنادهم واستمرارهم على كفرهم وشركهم، كما ينبئ عن ذلك قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف: ٤-٦.

ومن ثم استدعى السياق وتطلَّب الأمر هنا هذه الزيادة؛ لتعريف هؤلاء المشركين أنه ثواب عظيم، مؤكد محقق دائم بلا انقطاع (ماكثين فيه أبـدا) حيث شبه ما لهم في الآخرة من الملذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حالهم؛ للدلالة على أن هذا الأجر الحسن كالشيء الذي يحيط بهم من جميع جوانبهم، ولا يفارقهم طرفة عين، وعليه فإن التأبيد (أبدا) ليس لتأكيد معنى المكث الذي يدل بمادته على الاستقرار الدائم في المكان، بل أُفيد بمجموعهما(ماكثين) و(أبدا) الدلالة على الإحاطة والدوام[١]..

أما الاختلاف في وصف أجرهم إذ وصف بـ (كبيرا) في الإسراء، و(حسنا) في الكهف فإن وصفه في موضع الإسراء بـ (كبيرا) يتلاقى ويتلاءم مع ما عُرف من جشع اليهود، ويناسب طمعهم، ومن ثم جاء الوصف(كبيرا) مراعاة لحالتهم النفسية؛ ترغيبا لهم في الاستمرار على الإيمان وعمل الصالحات.

كما أنه يتلاقى بالتقابل مع الضيق المأخوذ من جعل جهنم حصيرا في جزاء الكافرين في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ الإسراء: ٨.

والحصير: المكان الضيق الذي ينحصر فيه الإنسان فلا يستطيع الخروج منه[٢].

فضلا عن شيوع لفظ الكبير في المجازاة الأخروية في السورة، كما في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾٢١، وكذلك في تنزيهه تعالى من

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٢/١٥.
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٣٢/١٤.

افتراءات المشركين: سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ ٤٣، وكذلك في تحديهم وتهديدهم بجمعهم ومجازاتهم: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ...﴾ ٥٠،٥١، وفي وصف طغيانهم: ﴿... وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴾ ٦٠، حتى إنها خُتمت بالأمر بتكبيره تكبيرا: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ ١١١.

أما وصفه في الكهف بـــ (حسنا) فإنه مناسب لخطاب المشركين الذين لا علم لهم بشيء ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ ﴾ الكهف: ٤، إذ الأهم عندهم في ترغيبهم في الإيمان وعمل الصالحات أن يكون لهم جزاء حســن دائم محقق الوقوع، وهذا ما جاء به موضع الكهف.

فضلا عن أن الوصف (حسنا) في الكهف يتلاقى بالتقابل مع (البــأس الشديد) وما يحمله من معاني السوء وشدة الألم في جزاء المنذرين الــذين استمروا على عنادهم وشركهم في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ الكهف:٢.

كما يتلاقى ويتلاءم مع شيوع ما يدل على الحسن في السورة لفظــا ومعنى، لفظا في مثل قولــه: ﴿...لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ الكهــف: ٧، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلٗا ﴾ الكهف:٣٠، وقوله: ﴿... نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ الكهف: ٣١،

وقوله: ﴿....وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ الكهف:٨٦، وقولـــه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ الكهف: ٨٨.

ومعنى كما في قوله في وصف القرآن في مطلعهـــا: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۜ ووصفة أيضا بـــ ﴿قَيِّمًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ﴾ ٧، وقوله في وصف إحسان أهل الكهـــف: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ ٩.

السياق الخامس:

سياق الحديث عن البعث وحال الناس فيه

بين الخوف والأمن وأثر العمل في ذلك.

وقد جاء في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ طه ٧٤- ٧٦.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ طه: ١١٢.

تحرير السياق

الموضع الأول وارد لبيان حال الناس يوم البعث بين الخوف والأمن على حسب أعمالهم؛ تأييدا لمقالة المؤمنين من قوم فرعون: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ طه: ٧٢،٧٣؛ تحذيرا من لقاء الله على العصيان، وتبشيرا لمن يؤمن ويعمل الصالحات، فمن يأت ربه مجرما قد ارتكب الموبقات، وقد خلت صحائف أعماله من الطيبات والصالحات فإن الخلود في جهنم مآله، حيث العذاب والخوف.

ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فمسكنه جنات عدن، ومنزلته الدرجات لعلى، حيث الراحة والأمن...

أما الموضع الثاني فسياقه تهديد وترهيب وتخويف من أعرض عن ذكر الله يوم يبعث الخلائق، فيصمت الجميع، وتخشع الأصوات، ولا تنفع الشفاعة، فيسيطر الخوف، ويشتد الهول إلا المؤمن الذي عمل الصالحات فإنه طامح إلى الفضل مستبشر بالأمن مطمئن بانتفاء الظلم(١).

التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم:

بنية عمل المجازى في الموضع الأول جاءت من خلال أمرين:

الأول: الوصف(مؤمنا) الذي يدل على رسوخ الإيمان عنده.

الثاني: (قد عمل الصالحات) بجمع الصالحات وتعريفها بـ (أل) للدلالة على كثرتها وكمالها، ومجيء (قد) الداخلة على الماضي (عمل) التي تؤكد عمله الصالحات.

أما صيغة المضارع (يأته) فلآن الآية تحكي ما يكون يوم يأتي الناسُ ربَّهم في الآخرة للمجازاة في سياق التهديد الشديد من فرعون ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ طه: ٧١؛ ولهذا جاءت البنية التركيبية للجزاء في غاية القوة تلاقيا مع قوة موقفهم في مواجهة فرعون وجبروته وظلمه.

(١) يراجع الآيات ١٠٠-١١٢.

فجاءت الجملة على صورة الشرط؛ للدلالة على التلازم والتحقق والترابط بين الإيمان وعمل الصالحات وهذا الجزاء كالترابط الذي يكون بين الشرط والجزاء.

فضلا عن تصدير الجزاء(جواب الشرط) بالفاء الدالة على سرعة حصوله، بعد تأكيد تحققه من خلال مجيئه على صورة الشرط.

ثم زيادة اسم الإشارة، إذ كان يكفي أن يقال: (ومن يأته مؤمنا فلهم الدرجات العلا).

واصطفاء(أولئك) الموضوع للبعيد تعظيما لشأنهم، وإشارة إلى بعد منزلتهم، وعلو مكانتهم، فضلا عن الدلالة على أحقيتهم وكونهم جديرين بما يذكر بعده من نعيم لعظيم فعلهم وجليل تضحيتهم(١).

ثم التعبير باللام الدالة على الملك والاستحقاق، ثم تقديم الجار والمجرور (لهم) المفيد القصر والتخصيص بأنه لا ينال هذه الدرجات ولا يصل إلى هذه المكانة غير من آمن بقلبه واتبع ذلك بعمل الصالحات على تنوعها وتعددها وما يعانيه فاعلها من مشاق ومتاعب في تحصيلها.

وهذا(جمع الصالحات وتعريفها) يتلاقى معه جمع الدرجات وتعريفها الدال على تنوعها وتعددها وكمالها.

ووصف الدرجات بـ (العلا) يتلاقى مع ما وعد به فرعون السحرة من الأجر والقرب في قولهم: ﴿...أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٥٥/١٦.

إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ الشعراء ٤١،٤٢، وكأنهم يردون قوله بأنه لا نسبة لدرجاتك التي وعدتنا بها من هذه الدرجات التي عند ربنا سبحانه(١).

كما تتضح هذه القوة في بنية الجزاء بتفصيله بعد الإجمال، وبيان أنه (جنات) كثيرة وعظيمة (عدن) أعدت للإقامة وهُيِّئت فيها أسبابها(٢).

ووصفها بما يزيدها جمالا وإمتاعا، حيث تجري من تحت غرفها وأسِرَّتها وأرضها الأنهار.

ثم وصف هذه الإقامة بأنها دائمة بلا انقطاع (خالدين فيها).

وهذا يتلاقى بالتقابل مع مجازا المجرمين في: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ طه:٧٤ التي ذكرت مقرهم (جهنم)، ثم بينت ووصفت حالهم وما يعانونه من أليم العذاب من خلال الدلالة على تجدده واستمراريته المفادة من ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾فهم ليسو أحياء حياة كريمة سعيدة، ولا أموات فيستريحون ولا يشعرون بألم(٣).

كما يتلاقى ويتلاءم مع ما هددهم به فرعون في قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ طه:٧١، فهو بما فيه من إذلال يتلاقى بالتقابل مع مجازاتهم من الله بالدرجات العلا، وبم فيه من تعذيب وإيلام يتلاقى بالتقابل مع إدخالهم جنات مُعَدَّة ومهيأة تنبع منها الأنهار، وتجري من تحتها.

---

(١) ينظر نظم الدرر ٣٣/٥.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٥٥/١٦.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٥٤/١٦.

كما أن خلودهم فيها يتلاقى بالتقابل مع قول فرعون في تهديدهم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

والتذييل بقوله:﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ ٧٦ تسلية للصحابة وتسرية عنهم ما كانوا يعانونه في بداية الدعوة عند نزول هذه السورة[١] من إيذاء.

كما أنه يتلاقى ويتلاءم مع حال من رفض الخنوع والخضوع والاستسلام للظالمين، ومن ركن إلى الدعة في رحابهم، والتمرغ في نعيم جنابهم.

أما الموضع الثاني﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه: ١١٢ فقد جاءت البنية التركيبية للجزاء فيه بـ (نفي الظلم أو النقص) من دون ذكر جزاء، مع أن البنية التركيبية للجزاء فيها تحمل من معاني القوة الكثير، حيث التعبير بالوصف (مؤمن) واصطفاء الفعل المضارع (يعمل)ن وجمع (الصالحات) وتعريفها.

والمجازاة بنفي الظلم – والمبالغة في ذلك بنفي ما هو أقل منه (الهضم) وهو النقص في جزاء الأعمال – عظيمة في حد ذاتها، ومن ثم لا يخاف المؤمن في هذا الموقف العظيم أن يُنسَب إليه سوءا لم يقترفه، أو ينتقص من أجر عمل قام به لكنه لم يؤده على الوجه الأكمل؛ لأن الإنسان محل العجز وإن اجتهد، ولن يقدر أحدٌ اللهَ تعالى حق قدره، ومن ثم فالمرء عاجز عن التوفية بحق الله تعالى لعدم قدرته على ذلك[٢].

---

(١) ينظر نظم الدرر ٣٣/٥.

(٢) ينظر نظم الدرر ٤٨/٥.

وهذا في حد ذاته عظيم يتلاقى ويتلاءم مع مجازاة المؤمنين وبنية عملهم، فضلا عن أن سياق الآيات هو الذي حتَّم هذا اللون من المجازاة، واقتضاه.

إذ السياق في الحديث عن حشر المجرمين على أسوأ حال يوم القيامة ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ طه: ١٠٢، وتهدُّم الكون ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ طه:١٠٥-١٠٧، والحال خوف وفزع شديدين، واتباع مطلق، فقد خشعت الأصوات، واشتد الهول، وانتفت الشفاعة، وانكشف المستور، وعنت الوجوه لملك الملوك ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ طه: ١٠٨-١١١، وعندئذ يشعر من ظلَمَ بخيبة أمل، ويتقين من مصيره، أما من آمن وعمل الصالحات فهو آمن من كل ذلك، فهو وإن سكت الجميع، واستسلم الكل للحي القيوم، وانتفى نفع الشفاعة، بل ولم يتجرأ أحد عليها، فإن المؤمن الذي عمل الصالحات لا يخاف أن يُنسب إليه من السوء شيء لم يفعله، أو شيء فعله غيره، لا يخاف ظلما، ولا يخاف أيضا أن ينقص من أجر عمل عمله، فيصله أجره منقوصا، ومن ثم لا يخاف هضم حقه.

وفي مثل هذه المواقف – مواقف المحاكمة – يكون أعظم مجازاة للإنسان ألا يُنسب إليه فعل غيره، ومن ثم يُعاقَب على ما لم يفعله، أو يُنتقص من حقه فيُجازى بأقل مما عمل، وهذا ما اقتضاه السياق _ والله أعلم _ .

السياق السادس

سياق التعقيب الختامي لمناسبة ما قبله

وقد جاء ذلك في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ الأنبياء: ٩٢-٩٤.

الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾ الأحزاب: ٣٥.

تحرير السياق

جاءت الآية الأولى تعقيبا ختاميا على علو مرتبة الأنبياء لعلو أعمالهم، وتأكيدا لمجازاتهم ومن تبعهم من المؤمنين بما يستحقون، فهي مسبوقة بحديث عن الأنبياء وما أوتوا وما قدموا في سبيل الدعوة إلى الله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ...﴾ الأنبياء: ٤٨-٥٠، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ... ﴾

٥١ -٧٣، ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ...﴾ ٧٤، ٧٥، ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ... ﴾ ٧٦،٧٧، ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ... ﴾ ٧٨-٨٢، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ...﴾ ٨٣،٨٤، ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ... ﴾ ٨٥،٨٦ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ.. ﴾ ٨٧،٨٨، ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ...﴾ ٨٨-٩٠، ثم ختم بمريم وابنها عليهما السلام في قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ٩١، ثم قال تعقيبا على ذلك كله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ٩٢، وأن من خرجوا عن أمرهم، وخالفوا أمرهم كائنا من كانوا تقطع أمرهم، وكانوا في غاية البعد تلاقيا بالتقابل مع وحدة أولئك(أمة واحدة) وشدة قربهم (وأنا ربكم فاعبدون)، ثم ختم هذا التعقيب بتأكيد رجوع الكل إليه، ومجازاتهم على أعمالهم فرقا بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء؛ تحقيقا للعدل وتشويقا للفضل ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ...﴾ ٩٣،٩٤.

أما آية الأحزاب فقد جاءت تعقيبا ختاميا على خطاب زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ ...﴾ الأحزاب ٣٠-٣٤ بعد أمره صلى الله عليه وسلم بتخييرهن في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ ٢٨، ٢٩.

التلاؤم بين العمل والجزاء

أول ما يجدر التنبيه عليه في موضع الأنبياء أن المُجازى هنا يشمل الأنبياء الذين سعوا لتبليغ رسالة الله، والدعوة إلى توحيده غير مكترثين بما نالهم – على اختلاف بينهم في ذلك – كما وضحت الآيات في السياق – ويشمل أيضا كل من آمن برسوله في زمانه، وهذا من وجهة نظري سر التعبير بـ (السعي) في (فلا كفران لسعيه).

وهذا ما استدعى أن يكون الجزاء بهذه البنية التركيبية النادرة في القرآن الكريم ، إذ لم ترد المجازاة بنفي كفران الأعمال إلا في موضعين هذا أحدهما، والثاني قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ آل عمران:١١٥.

فلما كان المجازى هنا متعددا ومتنوعا(أنبياء، وأتباع) ومن بين أفراده في كل نوع تفاوت، فالأنبياء ليسو على درجة واحدة، وكذلك الأتباع متفاوتون كان الأنسب أن يأتي الجزاء بهذا البناء التركيبي، وتلك لطريقة التي تؤكد حتمية الجزاء وتحقق حصوله، ولا تحدد نوع الجزاء، أو تتحدث عن ألوانه وتفاصيله (فلا كفران لسعيه) أي: كل واحد يُعطى جزاء عمله الصالح؛ لأن لكل واحد من كل نوع جزاء مختلفا، ودرجة ومنزلة في النعيم مختلفة، وهذه إحدى دلالات التعبير بنفي الكفران في المجازاة.

ويؤكد هذا إضافة السعي إلى ضمير المفرد (الهاء) في المتعلق (لسعيه) الذي يدل على خصوصية الجزاء تلاقيا مع خصوصية السعي، فبإظهار المساعي والأعمال المأخوذ من (فلا كفران لسعيه) يظهر عمل كل واحد منسوبا إليه، ومن ثم يُجازى بما يستحقه.

والكفران مصدر أصله التغطية والإخفاء والستر، والمقصود منه هنا حرمان الجزاء على العمل الصالح على طريق المجاز؛ لأن عدم ستر الأعمال يستلزم الجزاء عليها عرفا(١).

فاصطفاء التعبير بـ (الكفران) منفيا هنا له دلالات ثلاثة:

أولها: تأكيد المجازاة؛ لأن إظهار السعي الصالح اعتراف به، وهو ما يستلزم المجازاة عليه.

الثاني: التفاوت وخصوصية الجزاء حسب الأعمال، فحين يُعْلَنُ السعي يُقَيَّم بما يناسبه، ويفيه حقه من الجزاء.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٠٥/١٧.

الثالث: الحفاوة والتكريم اللذان يشعر بهما المُجازى الذي تم إظهار عمله أمام الجميع اعترافا بإحسانه، وشكرا لحسن مسعاه، كل على حسب سعيه..

وهذا ما يتلاقى ويتلاءم أشد تلاؤم مع تنوع المجازَين فيها وتفاوت درجاتهم، وما كان ليناسب لو جاء الجزاء محددا بدرجة واحدة مجملا أو مفصلا..

كما يلحظ أن الجزاء هنا جاء مؤكدا - وهي سمة عامة في الحديث عن الجزاء الأخروي - حيث أُخرج مُخرج الشرط والجزاء لتأكيد تحققه (من يعمل - فلا كفران لسعيه) وزيدت الفاء المعقبة في الجواب؛ للدلالة على سرعة حصوله.

كما أُكد بجملة (وإنا له كاتبون) كناية عن تحقق وقوعه، وعدم إضاعته؛ لأن الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم عدم إهماله وعدم إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابته ليُذكر ولو طالت المدة، وهذا لزوم عرض، قال الحارث بن حلزة:

وهل ينقص ما في المهارق الأهواء... [١].

فضلا عن حرف التوكيد (إن)، وضمير العظمة العائد على الله تعالى إبلاغا في حفظه والاهتمام به؛ لإظهاره المستلزم المجازاة عليه...

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٠٥/١٧، وهو عجز البيت رقم ٧٠ من همزيته وتمامه: حَذَرَ الجَوْرِ وَالتَّعَدِّي وَهَلْ يَنْقُضُ مَا فِي المَهَارِقِ الأهْوَاءُ ، وقبله قوله: واكْرُوا حِلْفَ ذِي المَجَازِ وَمَا قدَّمَ فيه العهودُ والكفلاءُ ، ديوان الحارث بن حلزة جمعه وحققه إميل بديع يعقوب ص٣٦، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ١٩٩١م.

أما موضع الأحزاب فإن الأوصاف المذكورة في الآية ثابتة لمؤمني هذا الأمة المحمدية، ولهذا جاء الجزاء فيها محددا (مغفرة وأجرا عظيما) للجميع (لهم) لا كما كان الجزاء في موضع الأنبياء(السابق) عاما، كل حسب سعيه ودرجته(فلا كفران لسعيه)..

وأول ما يُلحظ في البناء التركيبي للجزاء هنا أنه جاء نوعان: (مغفرة، وأجر عظيم) وهو ما يتلاقى هنا مع طلب المخاطبين بالأساس في السياق (أمهات المؤمنين) بعض متاع الدنيا الذي يشعر بالذنب والحاجة إلى المغفرة، ولهذا أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتخييرهم بين الدنيا ومتاعها وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة.

فجاءت المغفرة تلاقيا مع هذا السياق وتلاؤما مع هذه الحال التي كنَّ عليها – رضي الله عنهن – ، ثم عطف عليها الأجر العظيم الذي يناسب تفردهن بزيادات تخصهن وحدهن عَبَّرَ عنها قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ ...﴾ الأحزاب: ٣٢.

أما عن بنية الجزاء وما فيها من قوة فتتمثل في:

التعبير بـ (أعد) وما في المادة من الدلالة على التهيئة والعناية والاهتمام والتكريم والتعظيم.

التعبير بصيغة الماضي؛ لبيان أنه تعالى أسرع في المغفرة لهم تلاقيا مع إسراعهن في اختيار الله ورسوله، ورجوعهن عن طلب الدنيا ومتاعها، فالمغفرة أعدت لهن بالفعل.

إسناد الإعداد للفظ العزة والجلالة (الله) صراحة، فهو سبحانه الذي أعدَّ لهم المغفرة والأجر العظيم، وفي ذلك عظيم العناية ومزيد الاهتمام والتكريم.

ثم في تنكير (مغفرة) الذي يدل على عمومها وشمولها ما جاء له السياق وغيره، ويشي بعظمتها.

ثم في التعبير بلفظ (أجر) وما فيه من دلالة على استحقاقهم هذا الثواب وأنه أجر لهم مقابل أعمال قاموا بها.

وتنكيره المنبئ عن شموله أنواع الخيرات، ووصفه بـ (عظيم) الدال على عظمته وحسنه وقوته تلاقيا مع ما وصفوا به في السياق..

السياق السابع: سياق الفلاح بين أسبابه ومسبباته.

وجاء في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ المؤمنون ١- ١٠.

تحرير السياق

الآيات واردة في إثبات فلاح المؤمنين، وبيان أسبابه من خصال الفعل والترك في مهمات التكليف التي شرعها الله سبحانه؛ إذ جمعت في طياتها:

حفظ ما من شأن النفوس إهماله من الإيمان والصلاة والخشوع والإعراض عن اللغو، وحفظ الفرج والوفاء بالعهد.

بذل ما من شأن النفوس إمساكه من زكاة أو صدقة أو أمانة.

فكان في مجموع ذلك منبع الأخلاق الفاضلة، وأصل التقوى، من خلال إعمال ملكتي الفعل والترك في الشرائع والتكليفات(١) وهذه أسباب الفلاح، ومن ثم افتتحها بتأكيده بحرف التحقيق (قد)، والتعبير عنه بالفعل الماضي (أفلح)؛ إبلاغا في تحققه لمن توفرت فيه أسبابه، وترسخت في قلبه خصاله حتى أصبحت من ألزم صفاته وأكثرها رسوخا وثباتا، ولهذا جاء التعبير عنها جميعها بما يدل على الثبات واللزوم والدوام ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ ٢، ولم يقل: (الذين خشعوا في صلاتهم)، و ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ ٣، من دون (أعرضوا عن اللغو)، و﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾٤، لا (زكوا) أو (أدوا زكاتهم)، و ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ ٥، لا (حفظوا فروجهم) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ ٦، إلا في الحديث عن المحافظة على الصلاة فلما كانت تحتاج المتابعة والتجدد والتكرار خمس مرات يوميا، ثم يوما بعد يوم ناسبها اصطفاء صيغة المضارع (يحافظون) تلاقيا مع جمع الصلوات في ﴿وَٱلَّذِين هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ ٩، فالسياق سياق رضا وإنعام وامتنان واصطفاء.

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٧/١٨.

وكل هذا يتلاقى مع ما ورد في خاتمة سابقتها مما يشعِر بالاصطفاء والاجتباء من مثل ما ورد في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ الأنبياء: ٧٥، وقوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، و﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ إلى أن ختمها بقوله: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الأنبياء: ٧٨.

التلاؤم بين بنية العمل والجزاء

أول ما يلحظ في هذا الموضع أنه جمع في جانب المُجازى بين ثلاثة أشياء، هي من وجهة نظري ما يتحكم في قوة وعظمة الجزاء.

أولها: أنهم (المؤمنون) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

ثانيها: أنه سياق اصطفاء واجتباء، وإنعام وإكرام، ومن ثم افتتحت بالقطع بفلاحهم حتى قبل ذكرهم أو ذكر صفاتهم.

ثالثها: البناء التركيبي الفريد في تعديد صفاتهم، وشمولها الفعل والترك في التكليفات والمهمات.

وهذا ما لاءمه وناسبه وتلاقى معه اصطفاء التعبير بـ (الإرث) في الجزاء﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ ١٠، وتأكيده بالبيان ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ١١؛ إبلاغا في تأكيد توريثهم الفردوس إنعاما وتفضلا وامتنانا وإكراما..

فقد استعيرت الوراثة هنا للاستحقاق الثابت تلاقيا وتلاؤما مع ثبات صفات الخير المذكورة فيهم؛ لأن الإرث أقوى أيباب الاستحقاق[1] والتملك..

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٨/١٨.

ومن مظاهر قوة الجزاء كذلك التعبير عنهم باسم الإشارة (أولئك) بعد أن أجريت عليهم الصفات المتعددة السابقة؛ إشارة إلى أنهم جديرون وحقيقون لما اتصفوا به من صفات بما يذكر من الجزاء، فهم الأحقاء بأن يكونوا الوارثين الفردوس.

ومنها توسيط ضمير الفصل بين اسم الإشارة (أولئك) وخبره (الوارثون) لتقوية الخبر عنهم بذلك وتأكيده.

وحذف مفعول (الوارثون) إبهام وإجمال يفخم المعنى ويُشوق السامع إلى بيانه، ويجعله يترقب تبيينه ليستقر بعد وروده ويثبت.

ثم الإتيان في البيان باسم الموصول الذي يوضح بمضمون صلته ما يرثونه، وإذا به يبين أنه الجنة.

وكذلك في التعبير عن الجنة بالفردوس، وهو اسم من أسماء الجنة، ومن أشرف جهاتها وأعلاها[١]، والتعريف بلام الجنس الدالة على الكمال.

وأصل الفردوس: البستان العظيم الواسع الجامع لمحاسن النباتات والأشجار وأصناف الثمر[٢].

ثم بالتتميم من خلال بيان أن بقاءهم فيها وملكيتهم وميراثهم بلا نهاية ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مع اصطفاء حرف الظرفية (فيها) الدال على التمكن، واسم الفاعل(خالدون) الذي ينبئ عن الثبات والاستمرار والدوام تلاقيا مع أسماء الفاعل في(مؤمنون، و خاشعون، و معرضون، و فاعلون، و حافظون، و راعون).

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٨/١٨، ونظم الدرر ١٨٥/٥.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٨/١٨، ونظم الدرر ١٨٥/٥.

السياق الثامن

سياق تكريم النبي – صلى الله عليه وسلم-

وجاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ الأحزاب: ٤٥-٤٧.

تحرير السياق

الآية واردة في سياق تكريم النبي – صلى الله عليه وسلم – والتنويه بشأنه، وزيادة رفعه مقداره، وبيان أركان رسالته، وبيان وجه تعلقها بأحوال أمته وأحوال الأمم السابقة، حيث ذكر له خمسة أوصاف تنطوي على مجامع الرسالة المحمدية، هي: (شاهدا – مبشرا – نذيرا – داعيا إلى الله – سراجا منيرا).

فهو الشاهد على ما صح من الشرائع وبطلان ما ألصق بها، وعلى المستجيبين لدعوته والمعرضين عنها، وهو المبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، والنذير لمن يخالفون بمؤاخذتهم، والداعي إلى الله وتوحيده واتباع شرعه، والسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها[1]....

التلاؤم بين بنية العمل والجزاء

الناظر في هذا الموضع يلحظ أن بيئة المجازى التركيبية جاءت بالوصف (المؤمنين) من دون تعديدٍ لصفاتهم أو تفصيل لمناقبهم وأعمالهم، وهذا ما لاءمه وتلاقى معه مجيء الجزاء مختصرا أيضا ومن دون تفصيل رغم قوته المتمثلة في اصطفاء لفظ البشرى (بَشِّر) الذي يحمل الخير والإخبار بما يسر.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٧٩/٢١، وما بعدها.

والتأكيد بـــ (إن) تحقيقا لحصول المُبَشَّر به، وتقديم المتعلــق (لهــم) الذي يفيد الحصر والاختصاص تكريما وتعظيما.

وزيادة (من الله) مبالغة في قوة الفضل وعظمته؛ إذ هــو مــن (الله) الملك الأعظم سبحانه، فضلا عما فيه من تأكيد تحققه.

فالذي لهم مما بُشِّروا به ليس مجرد أجر أو ثواب على أعمالهم فقط، إنما هو فضل من الله العظيم ذي الطول والفضل، فالفضل هنا كنايــة عــن الإكرام والزيادة؛ لأن العطاء لا يكون فضلا إلا إذا كان زائدا عن المُسْــتَحَق، والمراد أن لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم، على حــد قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ ...﴾ يونس: ٢٦.

وتنكيره (فضلا) زيادة في تعظيمه، ومبالغة في عمومه وشموله، فهو فضل عظيم شامل لكل خير، لا يقتصر على شيء معين، ولا يحده حدٌّ.

ولم يكتف بذلك بل وصفَه بأنه (كبيرا) تقوي له على قوته، وتعظيمــا على عظمته.

وهذه القوة في الجزاء تلائم القوة التركيبية لبناء المُجازى، المتمثلــة في التعبير عنه بالوصف (المؤمنين) الوارد في سياق تكريم النبي – صــلى الله عليه وسلم – والتنويه بشأنه، وبذلك تكون الآية قد جمعت سببين مــن أسباب القوة:

الأول: التعبير بالوصف (المؤمنين) من دون تعديد أو تفصيل صفاتهم.

الثاني: سياق التكريم والتنويه والتفضل والإنعام.

ومن ثم جاء الجزاء بهذه القوة تلاقيا مع بنية المجازى وسياقه الوارد فيه، وخلا من التفصيل تلاقيا مع خلو المجازى من الأوصاف..

السياق التاسع

سياق تمام الرضا عن المؤمنين

جاء في موضعين:

الأول: قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الفتح:٤،٥.

الثاني: قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الحديد:١١،١٢.

تحرير السياق

آية الفتح واردة في تمام الرضا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين في الدنيا والآخرة، والإنعام والامتنان عليهم في الدنيا بالفتح الذي وصفه بـ (مبينا) في ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: ١، ثم غفران الذنوب – ما تقدم منها وما تأخر – ، وتمام النعمة والهداية إلى الطريق القويم والصراط المستقيم ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الفتح:٢، ثم بالنصر العزيز والتمكين في الأرض، وطمأنة القلوب لزيادة اليقين ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الفتح: ٣، ٤، وفي الآخرة بالفوز العظيم (دخول الجنة بعد تكفير السيئات) كما وضحته الآيات موضع الحديث.

وآية لحديد واردة في سياق تمام الرضا عن المنفقين بعد الحث على الإنفاق، فسياقها مشحون بهذا الأمر بدءاً من قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الحديد:٧، ومرورا بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الحديد: ١٠، وانتهاء بقوله – قبل الآية موضع الحديث هنا مباشرة – : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ الحديد: ١١.

التلاؤم بين بنية العمل والجزاء

المجازى هنا في موضع الفتح هم الذين أنعم الله عليهم بعد الفتح المبين بإنزال السكينة في قلوبهم فازدادوا إيمانا على إيمانهم الجبِلِّي الراسخ

في قلوبهم الملازم الثابت في شيمهم وأوصافهم في سياق الإنعام والإكرام، ومن ثم فقد توفرت في المُجازى ثلاثة جوانب تستدعي قوة الثواب وزيادته، هي:

الأول: (سياق الإنعام والتفضل والامتنان.

الثاني: التعبير عنهم بالوصف (المؤمنين والمؤمنات) الذين شاركوا النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا الفتح المبين والنصر العزيز.

الثالث: ما فصله من صفاتهم من أنهم المجاهدون الذين ألقى الله الطمأنينة والسكينة في قلوبهم، وزادهم إيمانا على إيمانهم، فضلا عما يشعر به قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الفتح: ٤ من أنهم جنود الله الذين ينصر بهم دينه، ويؤيد بهم نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، وهذا ما لاءمه أن يكون الجزاء قويا..

وأول مظاهر قوة الجزاء هنا مجيؤه على صورة العلة –(ليدخل) – لإنزال السكينة التي هي علة للفتح المبين والنصر العزيز، وهذا ما يضفي على الإدخال وكادة وقوة؛ لأنه بذلك علة العلة، وينبئ عن استحقاقهم هذا الجزاء لمشاركتهم في هذا النصر العزيز، ودخولهم في (جند الله) بعد شرح صدورهم وطمأنة قلوبهم بإنزال السكينة عليهم وزيادتهم إيمانا على إيمانهم.

وذكر المؤمنات هنا وعطفه على المؤمنين؛ لئلا يتوهم أن الوعد بالإدخال– الذي هو علة للفتح والنصر والجنود، وكلها من ملابسات الذكور – مختص بالرجال فقط؛ لأن النساء يشاركن في شدائد الفتح والنصر بالقيام

على المرضى الجرحى، وسقي الجيش، والصبر على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة وقت القتال، وعلى الثكل والتَّأيُّم بعده.. (١)..

ومن مظاهر القوة أيضا جمع (جنات) الذي يدل على كثرتها، وتنكيره الذي ينبئ عن عظمتها، فهي بساتين كثيرة لا تتصور العقول حقيقة وصفها وما حوته من نعيم(٢) وليست جنة واحدة، وهذا ما يتلاقى ويتلاءم مع سياق الإنعام والامتنان ومع عظيم أفعال المُجازَين وأوصافهم..

ومن مظاهر القوة أيضا وصف(جنات) بجملة (تجري من تحتها الأنهار) جريا متجددا في أي موضع منها أردت؛ لأن ماءها نابع منها، فضلا عن كثرة الأنهار التي ينبئ عنها صيغة الجمع، وكمالها في حسن الوصف الذي ينبئ عنه التعريف بلام الجنس..

ولما لم يكن في التعبير بـ (يدخل) ما يدل على المكث والإقامة أعقبه بما يدل على الخلود (خالدين فيها) أي: لا إلى آخر؛ طمأنة لقلوبهم في الآخرة تلاقيا مع طمأنة قلوبهم في الدنيا بإنزال السكينة؛ لأن النعيم لا يطيب إلا بالقرار... (٣).

وعطفُ تكفير السيئات (ويكفر عنهم سيئاتهم) على إدخالهم الجنات ينبئ – كما ذكر الشيخ ابن عاشور – عن أن إدخالهم الجنة إدخالٌ خاص، وهو إدخالهم منازل المجاهدين وليس الإدخال الذي استحقوه بصالح أعمالهم(٤)، فجاء تكفير سيئاتهم لطمأنة قلوبهم بسبب ما كانوا متلبسين به

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٢٨/٢٦.
(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٢٨/٢٦.
(٣) ينظر نظم الدرر ١٩٠/٧.
(٤) ينظر التحرير والتنوير ١٢٨/٢٦.

منها؛ دلالة على تمام الرضا عنهم المناسب لسياق الإنعام، وتلاقيا مع طمأنة قلوبهم عند الفتح بإنزال السكينة...

ومن مظاهر قوة الجزاء هنا أيضا تعقيبه بهذا التذييل﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ الذي يؤكد أن معامل الله لهم بالكرامة من خلال إدخالهم الجنات وما هيَّأ له من تكفير السيئات هو الفوز العظيم الذي يملأ جميع الجهات(١)..

ويظهر هذا من اصطفاء الماضي (كان) الذي يدل على رسوخ هذا الجزاء في كونه فوزا عظيما.

ومن التعبير عنه باسم الإشارة الموضوع للبعيد (ذلك) الذي ينبئ عن تعظيمه.

ومن تقديم المتعلق (عند الله) الملك الأعظم ذي الجلال اهتماما بهذه المعاملة ذات الكرامة(٢) ، وتعظيما لها(٣)، فضلا عن تنكير (فوزا) ووصفه بـ (عظيما) إبلاغا في فضله وعظمته..

أما آية الحديد فإن البنية التركيبية للجزاء فيها أكثر قوة تلاؤما مع سياق الحث على الإنفاق – على قلة المال وضيق الحال – قبل فتح مكة، وهو ما يرشح أن يكون المراد بالمؤمنين هنا الصحابة – رضوان الله عليهم – ؛ ولهذا نفى سبحانه التسوية بين الإنفاق قبل الفتح وبعده وإن وعد كلا

(١) ينظر نظم الدرر ١٩٠/٧، التحرير والتنوير ١٢٨/٢٦.
(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٢٨/٢٦.
(٣) ينظر نظم الدرر ١٩٠/٧.

بالحسنى ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحديد: ١٠.

وهذا ما أكده حديث الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وعبدالرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبدالرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها!!، فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: "دعوا لي أصحابي فوالله لو أنفقتم مثل أُحُدٍ أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم"(١).

ومن ثم فقد توفر في البنية التركيبية للمجازى كل أسباب القوة في الجزاء؛ إذ عُبِّرَ عنهم بالوصف (المؤمنين والمؤمنات)، وكان المراد بهم خير قرن وأفضل صحبة "خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ... الحديث(٢)"، والسياق في تمام الرضا عنهم.

ولهذا جاء الجزاء بهذه البنية التركيبية الأكثر قوة، حيث وصف حالهم يوم القيامة بأن لهم نورا، حيث أضاف النور إليهم (نورهم) أمارة على كمال سعادتهم، ودليلا على كمال الرضا عنهم، ثم جعل هذا النور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وفي ذلك السعي قوة وانتظام في الحركة، فضلا عما يُشعِر به من الملازمة، فهو معهم وأمامهم وخلفهم وبجوارهم حيثما حلّوا أو رحلوا.

---

(١) ينظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٢٦٦، حديث رقم (١٣٨٣٩)،وعلق عليه الأرنؤوط بقوله: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أحمد بن عبد الملك الحراني فقد روى له النسائي وابن ماجة وهو ثقة، المنتخب من مسند عبد بن حميد عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي تحقيق صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي ص ٢٨٧ حديث رقم (٩١٨) الطبعة الأولى،١٤٠٨هـ ١٩٨٨م مكتبة السنة القاهرة.

(٢) ينظر: صحيح البخاري ٦/٥٦٠ حديث رقم (٢٦٥١)، وفي رواية مسلم "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" صحيح مسلم ٧/١٨٥، حديث رقم (٦٦٣٥).

كما جاء التعبير عن الثواب مفتتحا بالبشرى، وهي الإخبار بما يسُـرُّ، مع اصطفاء صيغة المصدر وما فيها من قوة وزيادة على صيغة الفعل الذي يرتبط بزمن معين، وكأنه يقول لهم: إن البشرى أجمعها، وفي أوج قوتهـا، وعلى امتداد أزمنتها من نصيبكم أيها لمؤمنون المنفقون وقت الحاجة، فهي بشراكم التي تستحقونها دون غيركم، اهتماما بكم ، وتكريما لكـم، وتقويـة لثوابكم، وهذا ما يؤخذ من إضافة البشرى إلى ضميرهم (بشراكم) واصطفاء ضمير المخاطب من دون الغائب(بشراكم) الذي يضفي عليهم مزيد تشـريف وفضل اهتمام وزيادة رفعة لشأنهم بمخاطبتهم، وهو ما يتلاقى ويتلاءم مع كون المُجازى هنا السابقين من صحابة خير الأنام صلى الله عليه وسلم .

كما تظهر هذه القوة في تعقيب الجزاء بالتذييل (ذلك الفـوز العظـيم) الذي يؤكد معاني البشرى ويدل على مجموع محاسن ما وقعت به من خلال اصطفاء اسم الإشارة الموضوع للبعيـد (ذلـك) للتعظـيم والتنبيـه علـى الاستحقاق، ثم ضمير الفصل (هو) لتقوية الخبر(١) وقصـر الفـوز عليـه ادعاء ومبالغة في عظمته، وأن غيره بالقياس عليه لا يُعَـدُّ فـوزا، ولهـذا عرفه بـ (أل) الجنسية (الفوز) أي: الكامل في بابـه، الـذي بلـغ الرجـة القصوى في الكمال بحيث لا يعد غيره بجواره فوزا، ثم أكد ذلـك بوصـفه (العظيم) الذي ملأ بعظمته جميع الجهات (الـذوات، والأبـدان، والنفـوس، والأرواح) (٢).. مع اتحاده مع سابقه في أصل النعيم (الجنات) الموصـوفة بأنها (تجري من تحتها الأنهار) في بقاء دائـم لا تشـوبه شـبهة انقطـاع (خالدين فيها) لاشتراكهم معهم في أصل الإيمان؛ إلا أن لكل سـياق طابعـه الخاص وسمته وملابساته وخصوصياته التي تطبع الجزاء فيه بطابع معين، بحيث يشارك غيره في كثير أو قليل، ويتفرد بخصوصيات لا توجد إلا فيه...

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٤/٤٧٠.
(٢) ينظر نظم الدرر ٧/٤٤٤.

الخاتمة

الحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يليق بجلاله وكماله، وصلاة وسلاما دائمين متلازمين على خير خلقه، وصفوة رسله بما هو أهله، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم يبعثون، وبعد،،،

فبعد هذه التطوافة المتواضعة في رحاب التلاؤم بين بنية عمل المؤمنين وجزائهم الأخروي في القرآن الكريم يمكن إجمال أهم النتائج التي هدى الله بفضله إليها فيما يلي:

- أن جزاء المؤمنين يأتي قويا، أو أقوى، أو أكثر قوة – من وجهة نظري – حسب محددات ثلاثة، هي:

١- المراد بالمجازَى (المؤمنين)، فقد اختار التعبير بالوصف (المؤمنين، المؤمنون، المؤمنات) فقط مادة لهذه الدراسة؛ حتى لا يطول البحث أو يخرج عن الحد المعقول في نظائره.

ومعلوم أن هذه الصيغة (الوصف) أقوى من غيرها؛ لما فيه من دلالة على تمكُّن الإيمان منهم، وصيرورته فيهم وصفا ثابتا ولازما... هذا في جميع مواضعه، غير أنه إذا كان المراد بهم عامة المؤمنين يختلف الجزاء عنه إذا كان المراد بهم نوعا خاصا منهم كالصحابة مثلا... وهذا ما له خصوصية وأثر في نوع الجزاء وقوته...

٢- بنية عملهم في كل موضع من حيث الإيجاز والاختصار، أو الإطناب والتفصيل وتعديد الصفات، وغير ذلك مما تختلف بنية العمل فيه في موضع عنه في آخر...

٣- السياق الذي ورد فيه كل موضع، فسياق التكريم والإنعام يختلف الجزاء فيه عن سياق الجحود والنكران، وسياق الحديث مع المؤمنين يختلف عن سياق الحديث مع المشركين، وعنه في الحديث مع المنافقين... وهكذا..

فللسياق دوره البارز في قوة الثواب جنبا إلى جنب مع طريقة نظم التعبير عن المثاب، ومع المراد بهم في كل موضع...

- أن القرآن الكريم يراعي السياق وملابساته في كل موضع من مواضعه، ولهذا جاء الجزاء في المواضع التي جاء التعبير فيها عن المؤمنين بالوصف مفرداً (مؤمنا، مؤمن) إما:

بإفراد الجنة، كما في: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ النساء: ١٢٤، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ غافر: ٤٠

أو بمجيء الجزاء عاما من دون تفصيل فيه، كما في: ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٧، و﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ طه: ١١٢، و: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ الأنبياء: ٩٤، ولم يند عن ذلك سوى موضع طه (٧٤- ٧٦) فقد جاء فيها الجزاء مفصلا، وذلك لورودها في سياق حال الناس في البعث بين الخوف والأمن على حسب أعمالهم تأييدا لمقالة المؤمن ين من قوم فرعون بعد تهديده الشديد

بتعذيبهم وصلبهم في جذوع النخل وتقطيع أطرافهم من خلاف؛ لاقيا مع قوت موقفهم في مواجهة فرعون وجبروته وظلمه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ طه: ٧٤ – ٧٥. (١)

كما جاء الجزاء في المواضع التي ورد التعبير فيها بالجمع (المؤمنين، المؤمنون، المؤمنات) عاما – أيضا – في الغالب، كما في ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٤٦، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٢.

أو مجملا، كما في: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال: ٤، ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ الإسراء: ٩، ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الكهف: ٢، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠ – ١١، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٣٥، و ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ الأحزاب: ٤٧،

<u>ولم يخالف ذلك إلا في ثلاثة مواضع، هي:</u>

١- (التوبة ٧٢)؛ تلاقيا مع سياق تقابل التضاد عملا وجزاء بين المؤمنين والمنافقين، ومع تفصيل صفات المجازي (٢).

٢- (الفتح ٥)؛ تلاقيا مع سياق تمام الرضا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين معه بعد فتح مكة، فضلا عن أن المراد بالمؤمنين

(١) ينظر البحث ص ٤٢ وما بعدها.
(٢) ينظر البحث ص ١٠ وما بعدها.

فيها أصحابه – عليه السلام– الذين نصر الله بهم دينه وأعو بهم نبيه، وفتح بهم مكة (١).

٣–(الحديد ١٢)؛ تلاقيا مع سياق تمام الرضا عن المنفقين في وقت العسر بعد الحث على الإنفاق... (٢) .

وأخيرا أرجو أن يكون هذا العمل خالصا لوجه الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) ينظر البحث ص ٥٥ وما بعدها.

(٢) ينظر البحث ص ٥٧ وما بعدها.

أهم المراجع

- أسباب النزول للواحدي مؤسسة الحلبي وشركاه- القاهرة، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز مكة المكرمة ١٣٨٨ه ١٩٦٨م.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.
- البحر المديد لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الفاسي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان.
- التعريفات علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- تفسير ابن كثير، تحقيق محمود حسن، الطبعة الجديدة، دار الفكر١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي بيروت، من دون تاريخ.
- التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر – بيروت، دمشق الطبعة الأولى١٤١٠ (الشاملة).
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر، حديث (رقم ١٠٢) دار الجيل، ودار الأفاق الجديدة ـ بيروت بدون.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، تحقق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الإسكافي برواية أبي الفرج الأردستاني، الطبعة الثانية ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة بيروت – لبنان.
- ديوان الحارث بن حلِّزة جمعه وحققه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى١٤٢١هـ - ١٩٩١م.
- روح المعاني للآلوسي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- السنن الكبرى، وفي ذيله الجوهر النقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، رقم (٢١٣٩٣) مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، الطبعة: الأولى١٣٤٤هـ.
- الفروق اللغوية أبو هلال العسكري ص٣١٧ –٣٢٠ (موقع يعسوب الإلكتروني).
- القاموس الفقهي لغة واصطلاحا سعدي أبو جيب، دار الفكر– دمشق – سورية، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م (موقع يعسوب).

- الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت –١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- لسان العرب لابن منظور.
- المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقق شعيب الأرنؤوط وآخرون١/٤٣٥ رقم (٣٦٧) الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ١٩٩٩م، مؤسسة الرسالة.
- المصنف في الأحاديث والآثار أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق كمال يوسف الحوت الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ مكتبة الرشد – الرياض.
- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي تحقيق أد محمد إبراهيم عبادة مكتبة الآداب – القاهرة – مصر الطبعة الأولى– ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.
- مفاتيح الغيب للفخر الرازي، طبع دار الكتب العلمية طهران الطبعة الثانية من دون.
- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل لِلْحَرَالِّي أبي الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ المراكشي (ت ٦٣٨هـ)، مطبوع ضمن تراث الْحَرَالِّي في التفسير (١– مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل ٢ – عروة المفتاح ٣ – التوشية والتوفية ٤ – نصوص من تفسيره المفقود لسورتي البقرة وآل عمران) المستخرج من تفسير البقاعي(نظم

الدرر في تناسب الآيات والسور) تصدير محمد بن شريفة عضو أكاديمية المملكة المغربية، تقديم وتحقيق محمادي بن عبد السلام الخياطي أستاذ بكلية أصول الدين تطوان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط.

- المنتخب من مسند عبد بن حميد عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي تحقيق صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ ١٩٨٨م مكتبة السنة القاهرة.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة- لبنان- بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- نظم الدرر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١.	**المقدمة**	٣٣٠٣
٢.	**التمهيد**	٣٣٠٦
٣.	**السياقُ الأول**: سياقُ ترقِّي مراتبِ الجزاء تبعاً لمرتبةِ العقائدِ والأعمال.	٣٣١٢
٤.	**السياق الثاني**: سياق العاصم من النزاع البيني داخل الصف المؤمن وإصلاح ذات البين.	٣٣٣٨
٥.	**السياق الثالث**: سياق الدعوة والترغيب في الاتباع الدائم، مع تنوع طرقها بين الترغيب والترهيب.	٣٣٤٦
٦.	**السياق الرابع**: سياق هداية القرآن وتنوع طرقه بين الترغيب والترهيب.	٣٣٥٤
٧.	**السياق الخامس**: سياق الحديث عن البعث وحال الناس فيه بين الخوف والأمن وأثر العمل في ذلك.	٣٣٦١
٨.	**السياق السادس**: سياق التعقيب الختامي لمناسبة ما قبله.	٣٣٦٧
٩.	**السياق السابع**: سياق الفلاح بين أسبابه ومسبباته.	٣٣٧٣
١٠.	**السياق الثامن**: سياق تكريم النبي – صلى الله عليه وسلم–.	٣٣٧٧
١١.	**السياق التاسع**: سياق تمام الرضا عن المؤمنين.	٣٣٧٩
١٢.	**الخاتمة**	٣٣٨٦
١٣.	**المصادر و المراجع**:	٣٣٩٠
١٤.	**فهرس الموضوعات**	٣٣٩٤

بحمد الله